چان فراپييه
ا.م.جوسار

المسرح الديني

في العصور الوسطى

نصوص مختارة، تحليل، تعليقات، هوامش تفسيرية

ترجمة

د. محمد القصاص

مراجعة

د. محمد مندور

الكتاب: المسرح الديني في العصور الوسطى

الكاتب: چان فراپييه، ا.م.جوسار

ترجمة: د. محمد القصاص

مراجعة: د. محمد مندور

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

فراپييه، چان/ جوسار، ا.م.

المسرح الديني في العصور الوسطى / چان فراپييه، ا.م.جوسار، ترجمة: د. محمد القصاص، مراجعة: د. محمد مندور

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٧٥ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٤ – ٨٠ – ٦٨١٨– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٨٤٧٣ / ٢٠٢٠

المسرح الديني

في العصور الوسطى

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

هذه ترجمة كتاب

LE THEATRE REGEUX AU MOYENAGE

Par

Jean Frappier & A.M. Grossart

جدول زمني للمسرح الديني في العصور الوسطى

القرن التاسع : المجاز الحواري Quein Quaeritis لتوتليون Tutilion راهب سان جال.

القرن العاشر : مجاز حواري لقداس عيد الميلاد من أجل ديرسان مارسيال بليموج.

القرن الحادي عشر :

(دراسات طقوسية باللاتينية عن القيامة).

القرن الثاني عشر : تمثيليات مدرسية (باللاتينية واللغة العامية) دانيا (بوفيه)، القديس نيقولا ولعزار (فلوري على شاطئ اللوار)، درامة العذراوات العاقلات والعذراوات الحمقاوات (دير سان مارسيال في ليموج)، اهتداء القديس بولس، دانيال تمثيلية القديس نيقولا.

النصف الثاني من القرن الثاني عشر : قطعة من تمثيلية البعث (باللهجة الإنجليزية النورمندية).

نهاية القرن الثاني عشر :

تمثيلية آدم. لجان بودل (المتوفي ١٢١٠) :

تمثيلية القديس نيقولا.

القرن الثالث عشر:

البداية : قصة آلام منسوبة للشعراء المتجولين.

الوسط، روتبيف: معجزة تيوفيلوس.

القرن الرابع عشر :

البداية : آلام [مدينة] أوتان. آلام بالاتينوس.

الوسط : الآلام البروڤنسية.

١٣٧١ : جمعية الآلام بنانت.

١٣٨٠ : جمعية الآلام بباريس.

النصف الثاني: معجزات السيدة العذراء بالشخصيات. تمثيليات مخطوطة بمكتبة سانت جنفييف (لعلها تكون رصيد جمعية إخوان الآلام الباريسية).

القرن الخامس عشر :

خطابات الإجازة الممنوحة من شارل السادس للجمعية الباريسية للآلام (أول مسرح دائم يتقاضى أجرا).

الثلث الأول : آلام [مدينة] سيمور. أوستاش ماركاد Eustache Marcade : آلام [مدينة]آراس.

حوالي ١٤٥٠ : آرنوجريبان Araoul Greban :

سر الآلام، في حوالي أربعة أيام.

١٤٨٦ : جان ميشيل Jean Michel :

سر الآلام، في عشرة أيام.

القرن السادس عشر :

١٥٠١ : كتاب خطة السير لمدير تمثيل سر الآلام في مونسي.

١٥٤١ : تمثيل " أعمال الرسل، في أربعين يوما "، في باريس.

١٥٤٧ : تمثيل سر الآلام في فالنسين.

١٥٤٨ : قرار برلمان باريس يمنع تمثيليات الآلام.

القرن السابع عشر :

١٦٧٦ : إلغاء جمعية الآلام.

ملاحظة : نسير في هذا الكتاب على النمط الذي سار عليه العمل في كتب العصور الوسطى من هذه المجموعة، فنقدم من كل مؤلف ترجمة بعض أجزائه بالفرنسية مصحوبة ببعض التحليلات، مع فقرات من النص بلغته الأصلية.

المسرح الديني في العصور الوسطى

مذكرة

الأصول الطفوسية :

هل قامت العصور الوسطى باختراع الفن المسرحي بكل مقوماته من جديد ؟ إننا إذا طرحنا السؤال على هذا النحو من الإطلاق، لم يكن في وسعنا إلا أن نجيب عليه بالنفي. فقد كان رجال الدين يعرفون المسرح اللاتيني تمام المعرفة، ولكن تأثير هذا الأدب كان تأثيرا نظريا أكثر منه فعليا، كما كان ينحصر في المسرح الهزلي. والحقيقة أن سلسلة التقاليد المسرحية كانت قد انقطعت خلال عدة قرون، ولكن كان لابد للغريزة الدرامية – التي هي سمة دائمة للطبيعة البشرية – من أن تجد وسيلة لإشباع غلتها، وكانت الحياة الدينية أول ما قدم لها هذا الغذاء. وفي هذه النقطة يلتقي المسرح الإغريقي ومسرح العصور الوسطى من حيث نشأتهما.

كل الأديان درامية الروح مادام الإنسان فيها يواجه مقدوره. ولعل المسيحية تفوق غيرها من الديانات في أنها تعني أكثر منها بإبراز درامة العالم والضمير البشري هذه، وذلك أن تاريخ البشرية ليس في نظرها إلا مأساة تنتهي بالصليب وآلامه، والعالم عبارة عن مسرح ذي ثلاثة مناظر هي : السماء (الفردوس) والأرض، والجحيم، أما الضمير البشري

فموطن لنزاع لا يفتأ يتجدد بين الإنسان القديم الذي يرزح تحت نير الخطيئة الأولى، والإنسان الجديد الذي خلقه التعميد خلقا آخر. وقد استولت الطقوس الدينية على هذه المادة الدرامية، واستخدمتها وأحاطتها بحشود من الأناشيد والملابس والإشارات الكنسية التي جعلت من هذه الحفلات الدينية مشاهد من شأنها أن تعلم الشعب المؤمن، وأن تثير مشاعره أيضا. فالكنيسة هي التي " وجدت فيها البشرية هذا النوع من القلق الذي تبحث عنه في المسرح " وذلك على حد تعبير الأستاذ " جوليان بندا Julien Banda "

واللباس الديني وحركات القسس – التي تسير على نظام في غاية الدقة – هي الجزء التمثيلي في إقامة الصلوات، وكانت أهميتها في جذب انتباه المؤمنين تزداد كلما قلت قدرة الشعب في فهم اللغة اللاتينية، وتشهد كتب الطقوس بأقدميتها. يقول المنسنيور دوشين Du Chéne في كتابه (أصول الطقوس المسيحية ص ٢٠٢ – Origines du Culte Chrètien) : " أصبحت العباءة الدلماسية – شعارا خاصا بالبابا ورجاله، وذلك – على ما يبدو – بعد أن أخذت عامة الناس تنظر إليها على أنها لباس عتيقق ". وقد ظهرت الشعارات الرمزية التي من قبيل الطيلسانة والحريم منذ زمن مبكر، وكان الممثل الذي يلعب دور الفادي (الرمز) يلبس العباءة الدلماسية. في تمثيلية آدم.

ولا نزال نرى العناوين التي كانت تنظم حركات الممثلين في الدرامات الدينية الأولى مكتوبة بصورة واضحة في أنموذج الكتب التي خصصت لتنظيم القداسات.

وفي بعض الأعياد كانت الإحتفالات الدينية تتخذ لها طابعا دراميا أكثر بروزا من المعتاد، وقد احتفظت به حتى يومنا هذا، وفيها كان المصلون يقومون أحيانا ببعض الأدوار، ومن أمثلة ذلك : احتفالات عيد السعف التي تصحب بجوار يتلى على باب الكنيسة، وصلاة الصليب التي تقام يوم الجمعة الكبيرة، ومباركة شمعة الفصح في يوم السبت المقدس (سبت النور) وكانت رموز هذا الاحتفال الأخير تشرح في بعض الكنائس الإيطالية بواسطة منمنمات مرسومة على الأسطوانة الورقية التي يقرؤها الشماس، تلك المنمنمات التي كانت ترتب على ظهر القرطاس بطريقة تجعل المصلين يرونها بالتدريج كلما بسط الشماس مخطوطته.

استطاع العنصر الغنائي أن يحتل مكانا هاما في الطقوس منذ عصر قديم جدا، فكان إنشاد المزامير يتناوب الدور مع تلاوة النصوص في الجزء الأول من القداس، وكان المصلون يرددون الأجزاء الختامية في صورة جوقة.

ويرجع الفضل في إدخال غناء المزامير، وإنشاد الآيات التمهيدية التي تسبقها في أوربا إلى القديس أمبرواز Saint Ampraise في القرن الرابع الميلادي، كما أنه هو أيضا الذي أدخل في الطقوس عادة إنشاد الشعر الفردي بأناشيده اللاتينية المنظومة التي اتخذها الشعر المسيحي أنموذجا له طوال قرون عديدة. ولا شك أن ظهور هذين العنصرين : – الإبتداع الفردي، ونظام الجوقتين المتناوبتين – يسمح لنا جيدا بأن نفهم كيف أمكن للفن المسرحي أن يصدر عن الطقوس الدينية، فهنا نجد

الفن يحتل مكانه فيها.

ولكن هذه البراعم الأولى لم تتفتح إلا بعد قيام النهضة الكارولنجية. فقد عمل أحد الأديرة العظيمة ذات الثقافة، وهو ديرسان جال Saint Gall في سويسرا على أن يصبح مركزا للخلق الشعري الحقيقي. ففي هذا الدير اخترع الراهب توتيلون Tutilon الفقرات المجازية Trores، وهي شروح غنائية منظومة يقصد بها زخرفة النص وتوسيعه، وقد وضعت بعض هذه الفقرات في صورة حوار، ومن أمثلتها تلك التي تقال في افتتاح صلوات عيد الفصح، ومنها :

– " عمن تبحثن في القبر المقدس، يا خادمات المسيح ؟

– عن عيسى النصراني، يا سكان السماء.

– إنه ليس هنا، لقد بعث، كما سبق له أن قال : فهيا، وأعلن أنه قد خرج حيا من القبر المقدس ".

وكانت هذه هي نقطة الانطلاق، وقد أخذا الابتكار الذي يصح لنا أن نطلق عليه الأبتكار الدرامي يتبلور حول موسمين من مواسم السنة، وهما عيد الفصح الأول ثم عيد الميلاد، اللذان يعتبران بمثابة البؤرتين للطقوس الدينية.

وفي القرن العاشر نرى سان مارسيال الليموجي Siant Martial de Limages يقدم لنا مثالا من هذا النوع من الفقرات الحوارية الخاصة بالصلوات الافتتاحية لعيد الميلاد.

وإذا أردنا أن يحيط بجميع العناصر التي ساهمت في نشأة الأدب الدرامي الكنسي، فإنه يجب علينا أن نضيف عنصر التلاوة إلى الغناء، وهي اشتراك عدة أصوات في قراءة النصوص المقدسة على نحو ما يفعل اليوم بالنسبة لقراءة الإنجيل أثناء الأسبوع المقدس، وبهذه الصورة أيضا كانت تشكل بالشكل الدرامي إحدى المواعظ في قداس ليلة الميلاد، وهي الموعظة التي تنسب خطأ إلى القديس " أوغسطين " والتي نسمع فيها الأنبياء يتداولون الكلام واحدا واحدا لكي يعلنوا قدوم المسيح.

هكذا ولدت الدرامات الطقوسية المكتوبة باللغة اللاتينية في الأديرة ومنها انتقلت إلى الطقوس الدينية في معظم الكنائس، وهي قداسات درامية حقيقية، وتكون جزءا لا يتجزأ من الطقوس المقررة. والقرن الحادي عشر هو العصر الذهبي للدرامة الكنسية، ولكنها عاشت بعده زمنا طويلا. وهذه هي الدرامات الرئيسية : قداس الرعاة، وقداس القديسين الأبرياء، وسجود المجوس – وهذه بالنسبة لدورة عيد الميلاد – ثم القيامة، وحجاج عمواس، بالنسبة لدورة عيد الفصح.

وقد أمدتنا نهاية القرن الثاني عشر بنصين عظيمي الأهمية، وهما : قطعة من القيامة، وتمثيلية آدم، اللتان ترتبطان أشد ارتباط بالطقوس الكنسية من حيث موضوعاهما، ومن حيث إدخال بعض النصوص الطقوسية في الدرامة، ولكنهما تتميزان عنها بميزتين جوهريتين، وهما : أن الحوار فيهما باللغة العامية ولم يعد باللاتينية، وأن الحدث لم يعد يجري في الكنيسة، بل في مسرح مقام في الساحة التي أمامها، أو ربما

في الدير. ولقد نشأ المسرح الفرنسي من هذه الأعمال التي أطلق عليها اسم الدرامات شبه الطقوسية، والتي ستؤدي إلى ظهور الأسرار.

وقد احتفظت الدرامة الدينية في العصور الوسطى من أصلها الطقوسي بطابع المسرح الكامل، حيث نرى المناظر والغناء والموسيقى والحوار – بل والرقص – يتوالى كل منها بدوره للمساهمة في إثارة المشاهد، أو امتاعه، أو تعليمه.

البيئة :

المسرح فن اجتماعي بجوهره، ولذلك لا يمكن لأحد أن يتهمنا بالمبالغة، مهما أسهبنا في دراسة ما للجمهور من أهمية في تاريخ المسرح. فلو كان لدينا معلومات أوسع مما لدينا الآن عن البيئة التي شاهدت ميلاد كل مسرحية من المسرحيات التي بقيت لنا، لكان في وسعنا أن نفهم المسرح الديني بصورة أجدى وأخصب.

ولكن من سوء الحظ أن معلوماتنا عن هذه البيئة حتى القرن الخامس عشر ضئيلة القدر وغير مؤكدة، ولذلك نرانا مضطرين إلى الاعتماد على الفروض وضروب التعميم.

وهذه هي الظروف التي تحيط بنا حينما نحاول الإجابة عن هذا السؤال وهو : متى وكيف خرجت الدرامة الدينية من الكنيسة ؟ ولعله يجدر بنا هنا أن نتبع رأي الأستاذ " سيبيه Sebet الذي يعزو المبادرة في هذا الصدد إلى المدارس التابعة للأديرة، وينسب نصيبا من الأهمية يفوق

ما تنسبه الكتب المدرسية عادة إلى ذلك النوع من الدرامة الذي يبدو أنه قد نشأ حقيقة عن الدرامة الطقوسية، وإن كانت له مميزاته الخاصة وتطوره المختلف، ونعني به الدرامة المدرسية. وإذا أردنا أن نلجأ إلى بعض المقارنة لكي نزيد هذه المسائل المتعلقة بالأصول إيضاحا، كما هو الحال حين نقارن نشأة مسرحنا في العصور الوسطى بنشأة التراجيدية الإفريقية، أفلا يحق لنا أن نفكر في الدور الذي لعبته تراجيديه المدرسة المدنية في تكوين مسرحنا الكلاسيكي ؟ الواقع أن " المعجزة " قد نشأت من أجل جمهور الطلبة بمناسبة أعياد القديسين.

هذه هي البيئة التي نشأ فيها ذلك الإبتداع الهائل، أعني محاكاة الحياة اليومية محاكاة مطعمة بالمواضيع التقليدية التي تفرضها حياة التعبد.

يقول الأستاذ سيبيه في كتابه " الأصول الكاثوليكية للمسرح الحديث (Origines Catholiques du theater Moderna)، ص ٦٣ : "كانت هذه الأديرة الكبيرة خلال القرن الثاني عشر مراكز للعبادة والحضارة، ومزارع نموذجية، ومحترفات للفن والصناعة، ومؤسسات للتعليم العام، كل ذلك في آن واحد. وفيها كان عيد " القديس نيقولا " الذي يحتفل به في السادس من ديسمبر يعتبر بداية طيبة لمتع عيد الميلاد ". فكان من الطبيعي جدا أن يقوم الطلبة في مثل هذه الأعياد بمسرحية أساطير القديس بصورة تذكرنا بضروب الحوار الذي أشاعته الطقوس، ولكن بنصيب من الحرية لم تكن لتسمح به تلك الطقوس.

ويقول أيضا الأستاذ سيبيه (في المرجع نفسه ص ٨٤) : " كان إذن ممثلو " اهتداء القديس بولس " من بين الطلبة، وربما انضم إليهم أستاذ أو أستاذان من أساتذتهم. أما المشاهدون فكانوا ينحصرون في أشخاص الدير ابتداء من رئيسه حتى أقل أخ من الإخوة الخادمين، وأصغر تلميذ به، وأحقر تابع من توابعه، يزيد عليهم أقارب التلاميذ والسكان المجاورون بوجه عام. وإذا كانت المسرحية تكتب باللاتينية فإنها كانت لاتينية الكنيسة، كما كانت تدعمها بعض سطور من الغناء الديني التقليدي، ومن ثم كان لها من الأثر القوي – حتى على أشد الفلاحين إبغالا في الأمية – مالأجمل الصلوات.

هذا إلى أن التمثيل كان يفسر نفسه بنفسه بالنسبة لنفوس تعودت منذ طفولتها على المناظر العظيمة التي يتضمنها تاريخ المسيحية.

هذه إذن هي الدرامه التي انبعثت من الكنيسة منطوية على مواضيع متنوعة كل التنوع، مألوفة كل الألفة، ومزودة بوسائل فنية مفرطة في الحرية. فأين وكيف أتيح لها أن تصل في نهاية القرن الثاني عشر إلى هذا المستوى من التقدم الحاسم، وأن يرتدي حوارها ثوب اللغة العامية ؟ أغلب الظن أن المسرح قد ساهم في حركة الخلق الأدبي والفني العامة التي تميز بها النصف الثاني من هذا القرن. ولكن لعله يمكننا أن نقرر – على وجه التحديد – أن التطور الجديد للآداب الدرامية إنما يرجع إلى تغلب المدارس الأسقفية على مدارس الأديرة حوالي هذه الفترة، وذلك للأهمية المتزايدة لهذه المدارس التي منها بزغت الجامعات مرتبطة –

كما نعلم – بنشوء تحرر المدن وانتشاره، ذلك التحرر الذي أدى إلى انتقال مراكز الثقافة، يقول الأساتذة " باريه. وبرونتيه وترمبليه Paré, Brunetet Tremblayفي " نهضة القرن الثاني عشر ص ٢٠ " Larenaissance du XII Siécle " فتحت المدرسة والثقافة أبوابهما لطبقات جديدة، فتغيرت روحهما بتغير أهليهما... وأصبح أصحاب الثقافة كلهم من قبيل الشمامسة بطبيعة الحال، فصارت الروح الثقافية روحا دنيوية، وإن لم تكن مدنية، ولكنها أضحت تسمح بإشباع أذواقهم الأدبية، وإخراج بحثهم العلمي من الوصاية الدينية الخرقاء، أضحت روح تنافس وتجمع في آن واحد، لأن هؤلاء الأساتذة أصبحوا عرضة للتنافس والتحاسد، وللدخول في مناقشات حادة على قارعة الطريق، وفي الوقت نفسه أخذوا يشعرون شيئا فشيئا بضرورة تفاهمهم فيما بينهم، لكي يحافظوا على حقوقهم وامتيازاتهم ضد البرجوازيين الذين خرجوا من بين صفوفهم. " فالمدرسة الأسقفية أصبحت تعكس – بنظامها ونشاطها – جميع السمات التي تميزت بها المدينة.

هذه هي البيئة المنتعشة بالحياة إلى أقصى حد، التي ينبغي لنا أن نجعلها مقرا لانتصار المسرح المكتوب باللغة العامية على الأقل، إن لم يكن لنشأته.

وقد لاحظنا في الاقتباس السابق، المكانة التي تحتلها فكرة " التجمع " في هذه البيئة. وهذه أيضا سمة جديدة لن نعتبر مبالغين مهما أطنبنا في الكلام على أهميتها في تاريخ المسرح. وذلك أن هذه

الجماعات ذات الطابع الديني – سواء أكانت جمعيات مهنية أم أدبية – هي التي من أجلها عمد الشمامسة المتحررون مع الوصاية الكنسية – إن قليلا وإن كثيرا – إلى كتابة التمثيليات والمعجزات، وهي التي ستزود " الأسرار " بممثليها.

المؤلفات.

من شأن أمثال الجدول الزمني للمؤلفات المسرحية في العصور الوسطى الذي صدرنا به هذا الكتاب، أن توحي إلينا بأن النشاط الدرامي قد منى بالفتور أو التوقف في بعض الفترات، وهذه فكرة يجب أن نحذر القارئ منها.

فمن المحتمل أن تكون الثغرات التي يكشف عنها جدولنا، إنما ترجع لمجرد فقدان بعض الوثائق، بل لعله يحق لنا أن نأمل في أن يقل جهلنا بكثير من النقط بفضل البحوث المستقبلة.

مات جان بودل Jean Bodel سنة ١٢١٠، وقد كان شاعرا متجولا في آراس Arras، وسبق له أن كتب أغنية من أغنيات المفاخر سماها " القديسين " : وقد قام في زمن قريب من زمن ظهور تمثيلية " آدم " – على ما يبدو – بعلاج موضوع سبق أن عالجه باللاتينية هيلير Hilaire تلميذ أبيلار Abélard. فكتب تمثيليته عن القديس نيقولا يختلط فيها – بصورة غريبة – بعض مناظر ألحانه الواقعية بنوع من الإلهام البطولي الذي يذكرنا بكورني في بعض الأحيان. وحوالي منتصف

القرن الثالث عشر قام روتبيف Rute boeul– الذي لعله يفوق سابقه في الشعر الغنائي – بإنشاء نوع من الأنواع سنرى أنه سيصل إلى درجة كبيرة من الاتساع خلال القرن التالي، وهو نوع معجزات العذراء، وذلك حين كتب لإحدى الجمعيات " معجزة تيوفيل " التي تعتبر تخطيطا أوليا لأسطورة فاوست يعتريه النقص في بعض الأحيان، ولكنه لا يخلو دائما من فن، كما يمتاز بقوة التأثير.

وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر ازداد الإقبال على مشاهد الآلام. ويبدو أنها منبعثة من الدرامات الطقوسية، ولكنها تأثرت أيضا بالقصائد القصصية التي كان يؤلفها الشعراء المتجولون. وقد ازدهر هذا النوع إلى حد أن قامت في أواخر القرن جمعيات في أماكن مختلفة لا هدف لها إلا العمل على استغلاله، وسنرى أن وجود هذه الجمعيات الدرامية سيصبح في سنة ١٤٠٢ من الأمور المعترف بها رسميا عن طريق خطابات البراءة الصادرة من شارل السادس إلى جمعية الآلام الباريسية التي كانت تعرض تمثيلها في إحدى قاعات مستشفى الترينيتيه. وفي هذه الخطابات أطلق إسم الأسرار Mistères على هذه المشاهد لأول مرة.

وتوجد الآن في المكتبة الأهلية مخطوطة تحتوي على أربعين " معجزة من معجزات السيدة العذراء بأشخاصها " ترجع كلها إلى النصف الثاني من القرن الرابع عشر : من معجزات السيدة العذراء بأشخاصها " ترجع كلها إلى النصف الثاني من القرن الرابع عشر : ومن المحتمل أنها

تكون قائمة إحدى الجمعيات المجاورة لسوق باريس. وتتميز هذه المسرحيات المستقاة من مصادر مختلفة كل الاختلاف بأنها تقدم لنا في بعض مناظرها لوحة للحياة البرجوازية المعاصرة مستمدة من الواقع، كما أنها تحتوي – بوجه عام – على خطاب في تكريم العذراء، وتنتهي جميعها بمعجزة منها.

ويتميز القرن الخامس عشر بانتصار الأسرار : وفي أول الأمر كانت هذه الأسرار قصيرة نوعا ما، وبسيطة الأسلوب، ثم بدأت تتسع شيئا فشيئا، وتجمع في حوارها الشجي في غالب الأحيان جميع القوالب الغنائية المعروفة حتى ذلك العهد، ويعتبر " أوستاش ماركاديه Eustache Marcadet– قاضي كوربي Corbie الكنسي – أول من أشار إلى الفكرة الرئيسية للموضوع في مقدمة يناقش فيها مقدور الإنسان أمام الله بين " العدل " و " الرحمة "، وذلك في تمثيلية عن الآلام التي تستغرق أربعة أيام و ٢٥٠٠٠ بيت من الشعر. وقد اتبع هذه الخطة نفسها أرنوجريبان Arnoul Grébanونماها حوالي سنة ١٤٥٠ حتى بلغت ٣٤٤٥٠ بيتا : وتشهد بنجاح هذا العمل، الذي كتب أصلا للجمعية الباريسية، مخالصة أعضاء بلدية ابفيل Abbvilleالذين حصلوا على المخطوطة لتمثيلها في مدينتهم، كما تشهد بذلك الشهرة التي ظلت تتمتع بها التمثيلية حتى منتصف القرن السادس عشر.

وقد عدلت هذه المسرحية في سنة ١٤٨٦، وبسطت حتى أصبحت تستغرق عشرة أيام و ٤٥٠٠٠ بيت. وكان ذلك على يد جان

ميشيل Jean Micheطبيب أنجيه، بالرغم من أنه قصر موضوعها على حياة المسيح. ويمكننا أن نقول – على نحو ما – إن الأسرار من الأعمال الجماعية : إذ أن كل مؤلف فيها كان يبدأ عمله من حيث تركه سالفه، ويحاول أن يعلي بناءه. ولكن هذا العمل نفسه لا يلبث أن يتضاءل في غمرة الإضافات التي أثرته. وقد وصل إلى مرحلة تمامه على يد جريبان ولذلك يجدر بنا أن ندرسه لديه. وذلك أن تمثيليته " سر الآلام " تعتبر من الأعمال الضخمة التي تركتها لنا العصور الوسطى، وتستحق أن تجعل في متناول القراء المعاصرين في نصها الكامل. وهي تعتبر قمة في نوعها، كما هي الحال بالنسبة للكاتدرائيات وقصة الوردة، كما أنها تحمل في نفسها جراثيم الاضمحلال، ولكن إذا كانت العصور الوسطى تنهار فيها، فإنها تنهار من الإسراف في الحيوية، وتجاوز حد الاعتدال.

الاخراج :

لعل آصل ابتكارات العصور الوسطى في ميدان المسرح ينحصر في الإخراج المتصاحب الذي كان يستعمل في القرن الثاني عشر (اهتداء القديس بولس) وامتد استعماله حتى عهد كورني. وينحصر هذا الاخراج في وضع جميع المناظر منذ البداية بعضها بجانب البعض الآخر، حيث ينتقل الأشخاص من أحدها إلى الآخر تبعا لضرورات التمثيل، وفي وسعنا أن نأخذ فكرة عن هذه الطريقة في بساطتها البدائية من مقدمة القطعة التي لدينا من " البعث "، وها هي ذي كما ترجمها

الأستاذ سيبيه : " وعلى هذا النحو يجب أن نتلو – البعث المقدس. ولنبدأ بترتيب – كل الأماكن والمساكن : – الصليب أولا : ثم القبر بعد ذلك. ويجب أن تكون هناك غرفة سجن " زنزانة " – من أجل حبس المساجين وليكن الجحيم من هذه الناحية – والمساكن من الناحية الأخرى – ثم السماء، وعلى المقاعد – يوجد أولا " بيلاتوس " مع تابعيه، وسيكون معه ستة فرسان أو سبعة. وعلى الآخر سيكون قيافا – ومعه اليهود، – ثم يوسف الرامي – وفي الصف الرابع السيد نيقوديموس. وكل من هؤلاء حوله أتباعه. وفي الصف الخامس حواريو المسيح. ولتكن الماريات الثلاثة في الصف السادس. وليعمل على تمثيل الجليل في وسط المكان. ولتمثل فيه أيضا عمواس – حيث يقاد عيسى إلى المنزل. وحين يصبح الجميع جلوسا – ويسود الهدوء كل الأرجاء – يحضر السيد يوسف الرامي – ويذهب إلى بيلاتوس – ويقول له.."

وفي تمثيلية آدم يوجد ثلاثة أماكن على الأقل : الفردوس الأرضي في مكان مرتفع، ومحاط بواجهات منتهية بغرف صغيرة، ومزخرف بأغصان الأزهار، ثم الأرض حيث يرى آدم وحواء يعملان بعد خطيئتهما، ثم الجحيم حيث تخرج الشياطين الذين ينتشرون بين المشاهدين. وذلك أن مسرح العصور الوسطى كان يستخدم هو الآخر طريقة إيصال القاعة بالمسرح، تلك الطريقة المحببة إلى نفوس بعض الفنيين المحدثين، وأخيرا ينبغي ألا ننسى الكنيسة، حيث كان ينسحب الممثل الذي يمثل الإله حين يغادر المسرح. ويمكننا أن نكون لنا فكرة عن التقدم الذي تحقق في هذا الميدان إذا قرأنا " كتاب سلوك مدير المسرح – وحساب المصروفات الخاصة بسر الآلام التي

مثلت في مونس Mons سنة ١٥٠١ ". وقد نشره الأستاذ ج. كوهين (شامبيون سنة ١٩٢٥) فهناك سبعون موضعا لمناظر مقامة على تخت طوله أربعون مترا، ابتداء من عجلة الفردوس – التي يجلس أمامها الإله الأب على عرشه – حتى فوهة الجحيم. وأغلب الظن أن إعجاب الجمهور كان يتجه – بوجه خاص – إلى عجائب الآلية، وإلى ظهور الملائكة، وإلى الطوفان، وإلى البحر الذي تسبح فيه سفينته. ولكن كل هذه الروائع كانت تعلن عن انتهاء نوع : فحين يصبح المسرح بين أيدي الآليين وحدهم يكون عهده قد قارب الإنتهاء، ولا يبقى إلا انتظار الساعة التي يظهر فيها أحد الشعراء، وربما لم يكن إلا شاعرا مجهولا مثل مؤلف تمثيلية آدم، فيبعث فيه الحياة من جديد بوسائل مرتجلة، وذلك بإيجاد نوع من الائتلاف التام بين النص والإخراج.

قائمة مختصرة بالمراجع

دراسات :

ج. كوهين G. Cohen

المسرح في فرنسا في العصور الوسطى (المسرح الديني)

أ.جانروا A. Jeanroy : المسرح الديني في فرنسا من القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر (مترجمات).

م. سيبيه M. Sepet : الدرامة الدينية في العصور الوسطى.

ل. كليدا L. Clédat: المسرح في فرنسا في العصور الوسطى.

ل. پتي جوليفيل L. Petit Juleville– الأسرار.

ا. روا E, Roy–أسرار الآلام في فرنسا من القرن الرابع عشر حتى القرن السادس عشر.

طبعات :

تمثيلية آدم قام بطبعها :

ك. جراس Romanische Bibliethek، مجلد ٦، الطبعة الثانية سنة ١٩٠٧.

ب. ستيودير P. Studer، مانشستر سنة ١٩٠٨.

هـ. شامار H. Chamard، باريس ١٩٢٥ (مع ترجمة).

معجزة " المرأة التي حفظتها سيدتنا العذراء من الاحتراق " توجد في المجلد الرابع من طبعة " معجزات السيدة العذراء مع الأشخاص، عن مخطوطة كانجيه Cangé(جمعية النصوص القديمة، ١٨٧٦ – ١٨٨٣سبعة مجلدات)، قام بنشرها ج. باري G. Paris و ا. روبير U Robert سر الآلام لارنوجريبان، قام بنشرها (ج. باري G. Paris (وج. رينو G. Raynaud، باريس سنة ١٨٧٨.

تمثيلية ادم...

تمثيلية آدام التي توجد مخطوطتها الوحيدة في حوزة مكتبة " تور Tours" يرجع تاريخها إلى نهاية القرن الثاني عشر – ومن المحتمل أن يكون الذي قام بكتابتها شماس نورمندي، أو إنجليزي نورمندي مجهول الاسم – لكي تمثل خلال أعياد الميلاد في ميدان الكنيسة الخارجي، وذلك كما يتبين من الملاحظة المكتوبة على المخطوطة باللاتينية حول الديكور، والملابس، وطريقة الإيماء Mimique، بل وحول إلقاء الممثلين. وتشتمل التمثيلية على ثلاثة أجزاء : سقوط آدم وحواء، ومقتل هابيل على يد قابيل، وموكب الأنبياء لإعلان قدوم المسيح.

ومن شأن فكرة الخلاص عن طريق التكفير السارية في أرجاء تمثيلية آدم أن تحقق وحدتها الدرامية.

المنظر الأول

الرمز : يا آدم !

آدم : مولاي !

الرمز : لقد خلقتك من تراب الأرض.

آدم : أعرف ذلك، يا مولاي.

الرمز : لقد صورتك على مثالي، وبرأتك على صورتي، من تراب. فلا يصح لك – في أية حال – أن تجرد على حربا.

آدم : كلا، لن أفعل، بل سأومن بك، سأطيع خالقي.

الرمز : لقد وهبتك صحبة طيبة ! إنها زوجك، واسمها حواء. إنها زوجك ونظيرك، ويجب عليك أن تكون وفيا لها، وعليك أن تحبها، وعليها أن تحبك، وستحظيان – كلاكما – بحبي. عليها أن تخضع لسلطانك، وعليكما أن تخضعا لإرادتي، لقد خلقتها من ضلعك، فهي غير غريبة عنك، بل منك جبلت. صورتها من جسمك، فهي خارجة منك، لا من شئ آخر. لا يكن بينكما أي شقاق، بل لا يكن بينكما إلا الحب العظيم، والمودة العظيمة : هذا هو قانون عشرتكما. (لحواء) وإليك أنت أيضا، يا حواء، سأوجه كلامي، فتديري هذا الكلام، واستفيدي منه : إذا نفذت إرادتي، حفظت ما تنطوين عليه من طيبة، أحبي في خالقك وكرميه، واعترفي لي بأني مولاك. وتوفري على خدمتي بكل ما لديك من حماس، وقوة، وروح. أحبي آدم وحوليه بجنانك. إنه زوجك، وأنت زوجه. برهني لي في كل وقت أنك لست على استعداد لعصيانه، اخذميه وأحبيه من كل قلبك. هذا هو قانون الزواج، فإذا أحسنت معونته، جعلتك وإياه موضع تكريمي.

حواء : سأسير – يا مولاي – تبعا لما يرضيك، ولن أحاول أن أحيد عن ذلك بأية حال، سأعترف لك دائما بأنك المولى، وله بأنه الزوج

والسيد، سأكون راية له في كل حال، وسيتلقى مني خير النصائح، وسأبذل كل ما في وسعي لرضائك، وخدمتك.

(يجعل آدم يقترب منه ويقول له بإصرار شد من ذي قبل) انصت يا آدم، وافهم قولي : لقد خلقتك، والآن ها هي ذي الهبة التي أهبك أياها : تستطيع – إذا أطعتني – أن تعيش أبدا، والا يعتريك المرض أو الخوف، ولن تعرف الجوع، أو تشرب عن حاجة إلى الري. ولن يمسك زمهر يرولاحر، ستحيا في سرور، فلا يصيبك النصب، وتظل في نعيم، فلا يمسك الألم. وستتابع حياتك كلها في الانشراح، ستدوم إلى الأبد، ولن يعتريها القصر، أقول لك ذلك، وأريدمن حواء أن تسمعه، فإذا لم تفهمه كانت حمقاء، لكما الولاية على الأرض كلها، على طيرها وحيوانها وجميع سكانها. ولن يضير كما في شئ أن تكونا موضعا للحسد، لأن العالم بأسره سيكون تحت إمرتكما، وأمامكما سأضع الخير والشر كليهما، فمنذ الآن زنا كل شئ بغاية الدقة، ولا تسلكا سبيلا يتنافى والوفاء لي، دع الشر والزم والخير، أحبب مولاك، وابق معه، ولا تهجر نصيحته من أجل أية نصيحة أخرى، فإذا فعلت ذلك بعدت عن طريق الخطيئة.

آدم : حمدا جزيلا لك، انت يا من خلقتني ووهبتني هذه النعمة الجلي حين وضعت الخير والشر تحت تصرفي. سأكرس إرادتي لخدمتك. أنت مولاي، وأنا مخلوقك. أنت الذي برأتني وأنا صنيعتك. إن إرادتي لن تعصاك بقدر ما تتحمس لخدمتك.

الرمز : (يشير بيده إلى الفردوس) يا آدم !

آدم : مولاي !

الرمز : سأخبرك بمقصودي. انظر إلى هذه الجنة.

آدم : ما اسمها ؟

الرمز : الفردوس.

آدم : إنها رائعة الجمال.

الرمز : أنا الذي غرستها ونسقتها، ومن سكنها صار حبيبي. ها أنذا أسلمها إليك، لتسكنها وتحتفظ بها. (يجعلهما يدخلان الفردس قائلا :) ادخلاها

آدم : أنسطيع دخولها ؟!

الرمز : وأن تعيشا فيها أبد الآبدين. وليس لكما أن تخشيا فيها شيئا، وفيها لن تموتا، ولن يعتريكما المرض.

(الجوقة تغني الغناء الجماعي) : إذن لقد فعل الله.

الرمز. (يمد ذراعه نحو الفردوس) : سأخبرك بطبيعة هذه الجنة : ليست هناك من متعة تنقصها، ليس هناك من خير في هذا العالم إلا يوجد فيها بكل كفاية. وفيها لن تعاني المرأة الأتراح من أجل الرجل، ولن يعاني الرجل عارا أو خوفا من أجل المرأة. ولن يحتاج الرجل لارتكاب الخطيئة من أجل التناسل، ولن تعاني

المرأة الآلام من أجل الوضع. فيها ستحيا أبد الآبدين، فمناخها جيد جدا ولذا ستظل سنك دائما على ما هي عليه دون أي تغيير. لن تخشى فيها الموت، لأنه لن يستطيع أن يصيبك – فلا تخرج منها، واجعل منها مقامك.

الجوقة : (تغني الغناء الجماعي) : " قال الله لآدم " (ثم يقوم الله بتوجيه نظر آدم إلى أشجار الحنه ويقول) : تستطيع أن تأكل من جميع هذه الفواكه كما تشاء، (يوجه نظره إلى الشجرة المحرمه وثمرتها)، ولكني أنهاك عن الأكل من هذه فإنك إن أكلت منها مت من فورك، وفقدت حبي، وأصبحت تعس المصير.

آدم : سأحافظ على وصيتك بحذافيرها، لن نخالفها في شئ، لا أنا ولا حواء. أمن أجل ثمرة واحدة تضيع كل هذه السكني ! إنه من العدل أن يقذف بي إلى الخارج في مهب الرياح، إذا أنا تخليت عن حبك من أجل تفاحة. إن من يجدف ويخون مولاه يجب أن يطبق عليه قانون الخونة. (الرب يذهب نحو الكنيسة. آدم وحواء يتنزهان في الفردوس ويتسليان تسلية بريئة).

المنظر الثاني

(في هذه الأثناء تنتشر الشياطين في أرجاء المكان – بحركات وإشارات مناسبة – وتقترب بالتتابع من الفردوس وهي تلفت نظر حواء إلى الفاكهة المحرمة، كما لو كانت تريد إغراءها بالأكل منها. وأخيرا

يذهب أبليس إلى آدم.)

إبليس : ماذا تفعل يا آدم ؟

آدم : أعيش هنا في بهجة شاملة.

إبليس : أأنت بخير ؟

آدم : لا أحس أن شيئا يضايقني.

إبليس : يمكن للمرء أن يكون أحسن حالا.

آدم : لا أدري كيف يمكن ذلك.

إبليس : أتريد أن تعرف ؟

آدم : لن تجعلني هذه المعرفة خيرا مما أنا الآن.

إبليس : إني أعرف كيف.

آدم : وماذا يعنيني من ذلك ؟

إبليس : ولم لا ؟

آدم : هذا لن ينفعني في شئ.

إبليس : بل سينفعك.

آدم : لا أدري متى.

إبليس : لن أقول لك ذلك بصورة عابرة.

آدم : قله لي الآن.

إبليس : كلا، إلا بعد أن تكل من كثرة رجائي.

آدم : لست في حاجة إلى معرفته.

إبليس : حقا إنك لن تستطيع أن تنال من كل ذلك أية فائدة : فأنت لا تعرف كيف تستمتع بالخير الذي في حوزتك.

آدم : كيف ذلك ؟

إبليس : أتريد أن تعرف كيف ؟ سأخبرك فيما بيني وبينك.

آدم : فليكن.

إبليس : أنصت يا آدم، أعرني سمعك.

آدم : كلي آذان صاغية.

إبليس : أتصدقني ؟

آدم : نعم، بكل تأكيد.

إبليس : في كل ما أقوله ؟

آدم : إلا في شئ واحد.

إبليس : وما هذا الشئ ؟

آدم : سأخبرك به : ذلك أني لن أغضب خالقي.

إبليس : أتخافه إلى هذا الحد ؟

آدم : نعم، الحقيقة أني أحبه، وأخافه.

إبليس : ليس هذا من الحكمة، ماذا في مقدوره أن يفعل ؟

آدم : كل الخير والشر.

إبليس : لقد أصبحت مجنونا منذ اليوم الذي اعتقدت فيه أنه يمكن للشر أن يصيبك، ألست غارقا في المجد ؟ إنك منزه عن الموت.

آدم : لقد أخبرني الرب بأنني سأموت إذا خالفت وصيته.

إبليس : وما هي هذا المخالفة الكبيرة ؟ إني أريد أن أعرفها دون أي تأخير.

آدم : سأخبرك بها بكل صراحة : لقد أدلى إلى بوصية، وهي : أني أستطيع الأكل من جميع فواكه الجنة، ما عدا واحدة فقط، فقد نهاني عن الأكل منها، ولن أمسها بيدي.

إبليس : وأي فاكهة تلك ؟

آدم : (يرفع يده ويشير بها إلى الفاكهة المحرمة) أتراها ؟ إنها هي التي نهاني عنها نهيا قاطعا.

إبليس : أتدري لماذا ؟

آدم : أنا ؟ كلا، بكل تأكيد.

إبليس : سأخبرك بالسبب : إن الفواكه الأخرى لا تعنيه في شئ، أما هذه التي تتدلى من أعلى – (مشيرا بيده إلى الفاكهة المحرمة) – فإنها شئ آخر، إنها شجرة المعرفة التي تؤدي إلى معرفة كل شئ. فإذا أكلت منها، فعلت خيرا.

آدم : أنا ؟ وأي خير ؟

إبليس : سترى ذلك، سيرتفع الغطاء عن عينيك في الحال، وسينكشف لك كل ما هو كائن، وسيصبح في مقدورك أن تفعل كل ما تريد، فهذا خير جزيل تستحوذ عليه. كل منها تنل خيرا، ولن تعود في حاجة في خوف ربك في شئ، بل ستصبح ندا له في كل شئ. وهذا هو السبب الذي دفعه إلى تحريمها عليك، أتصدقني ؟ ذق هذه الفاكهة

آدم : لن أفعل ذلك.

إبليس : يا لها من مهزلة ! لن تفعل ذلك ؟

آدم : كلا.

إبليس : إذن فأنت معتوه ! وسيأتي يوم تتذكر فيه ما أقوله لك. (الشيطان ينسحب، ويذهب إلى الشياطين الأخرى، وبعد أن يجول قليلا في المكان يرجع إلى إغراء آدم، والبشر والمرح يبدوان عليه)

إبليس : ماذا تفعل، يا آدم ؟ ألن تغير رأيك ؟ ألا تزال غارقا في أفكارك الحمقاء ؟ أظن أني قلت لك ذات يوم : إن الله قد جعلك هنا عالة عليه، وأنه لم يضعك هنا إلا لتأكل هذه الفاكهة، أليست لك إذن أية متعة أخرى ؟

آدم : نعم بكل تأكيد، لا شئ ينقصني.

إبليس : لن تصعد أبدا إلى أعلى مما أنت ؟ أتعتبر أسمى المكارم أن يكون الرب قد جعلك بستانيه ؟ إن الرب قد جعلك حارسا لجنته. ألن تبحث لنفسك قط عن وظيفة أخرى ؟ أهو لم يخلقك إلا لكي تملأ كرشك ؟ ألا يريد أن يسمو بك إلى مكانة أخرى ؟ أنصت، يا آدم، استمع إلي : إذا أصغيت إلى نصيحتي التي يحق لك أن تثق فيها، استطعت أن تصبح بلا مولى، وأن تصير ندا للخالق. بل سأقول لك الحقيقة في أخصر عبارة : إنك إن أكلت التفاحة (يمد يده نحو الجنة) أصبحت لك السيادة، واستطعت أن تقتسم السلطان مع الرب.

آدم : اخرج من هنا.

إبليس : ماذا يقول آدم ؟

آدم : اخرج من هنا. إنك الشيطان، ولست تقدم إلا النصائح الكاذبة.

إبليس : أنا ؟ كيف ذلك ؟

آدم. إنك تريد أن تسلمني إلى الفناء، وأن تسئ ما بيني وبين مولاي، وأن

تحرمني من السرور، وأن تلقي بي في بحر من الشقاء. اخرج من هنا ولا يكن لك من الصفاقة ما يدفعك إلى العودة أمامي مرة أخرى ! إنك خائن عديم الإيمان. (يبتعد إبليس عن آدم حزينا مطأطئ الرأس، ويذهب حتى أبواب الجحيم حيث يتناقش مع الشياطين الاخرى، ثم يجول بين الناس، وأخيرا يقترب من الفردوس من ناحية حواء التي يخاطبها في مرح وحنان).

المنظر الثالث

إبليس : لقد حضرت هنا من أجل أن أكلمك، يا حواء.

حواء : قل لي، أيها الشيطان، ماذا تريد ؟

إبليس : إني أسعى إلى مصلحتك، وإلى سعادتك.

حواء : ليمنحنا الرب إياها.

إبليس : لا تخافي، فإني أعرف أسرار الفردوس منذ زمن طويل وأريد أن أقص عليك طرفا منها.

حواء : ابدأ، إذن، فإني مصغية إليك.

إبليس : أستصغين إلي ؟

حواء : نعم، ولن أغضب في شئ.

إبليس : هل ستكتمين السر ؟

حواء : نعم، أقسم لك.

إبليس : وإذا أذيع ؟

حواء : لن يكون ذلك على يدي.

إبليس : سأثق فيك، ولن أطلب منك أي ضمان.

حواء : في وسعك أن تثق في كلمتي.

إبليس : إنك سريعة الفهم، فقد رأيت آدم، ولكنه أظهر حمقا شديدا.

حواء : إنه شديد المراس بعض الشئ.

إبليس : سيلين. إنه أشد مراسا من الجحيم.

حواء : إنه جد صريح.

إبليس : كلا، بل شديد الخضوع. فإذا كان لا يريد أن يبالي بنفسه فليبال بك على الأقل. إنك مخلوقة ضعيفة مفعمة بالحنان والمودة، ووجهك أنضر من وجه الوردة، إنك أنصع بياضا من البلور والثلج الذي يتساقط فوق جليد الوادي، وقد جمع الخالق بينكما وأنتما جد متنافرين : فأنت شديدة الحنان، وهو شديد القسوة، ومع ذلك فأنت أحكم منه، لأنك تخضعين قلبك لعقلك، لذلك يسر المرء أنه يوجه إليك حديثه. إني أريد أن أتكلم معك.

حواء : تستطيع أن تثق بي.

إبليس : أريد ألا يعرف أحد ذلك.

حواء : ومن الذي يهمه أن يعرفه ؟

إبليس : حتى ولا آدم.

حواء : كلا، أقسم لك.

إبليس : إذن سأوضح لك الأمر، فأنصتي إلي. ليس الآن في هذا المكان سوانا نحن الإثنين، أما آدم فهناك، ولن يستطيع أن يسمعنا.

حواء : ارفع صوتك، فلن يسمعنا، مهما تكلمت عاليا.

إبليس : إني أحذرك من شرك نصب لك في هذه الجنة، ذلك أن الفاكهة التي أباحها لكما الرب ليست جيدة، أما تلك التي حرمها عليكما بكل صرامة، فإنها ذات مزية جلي : ففيها نعيم الحياة، وفيها القوة والسيادة، وفيها المعرفة الشاملة، وفيها الخير والشر.

حواء : ما نكهتها ؟

إبليس : من السماء، ولا شك أن المصير الذي يليق بجمال جسمك ووجهك، ليس أقل من أن تكوني ملكة العالم، ملكة الجنة والنار، وأن تعرفي كل ما هو موجود، وأن تكوني سيدة الجميع.

حواء : أهذه الفاكهة على نحو ما تقول ؟

إبليس : نعم، حقيقة.

حواء : (بعد أن تتأمل الفاكهة المحرمة وقتا طويلا) : إن مجرد رؤيتها يفعمني بالراحة.

إبليس : فكيف يكون الحال لو أكلت منها ؟

حواء : ما يدريني ؟

إبليس : ألا تصدقينني ؟ خذيها أولا، وناوليها آدم، وفي الحال سينزل عليكما تاج من السماء، وتصبحان ندين للخالق. ولن يستطيع أن يخفي عليكما مقاصده، لن تكادا تذوقان الفاكهة حتى يتغير قلبكما. ستصحبان – بلا أدنى شك – مساويين للرب في الطيبة، وفي القدرة. فذوقي هذه الفاكهة.

حواء : ما أشد شوقي لأكلها ؟

إبليس : لا تصدقي آدم.

حواء : سأذوقها فيما بعد.

إبليس : متى ؟

حواء : أنتظر حتى ينام آدم

إبليس : كليها، لا تخافي، فإن الانتظار ضرب من الصبيانية.

(يبتعد الشيطان عن حواء، ويعود إلى الجحيم. آدم يقترب منها، وقد بدا عليه الامتعاض من تبادلها الحديث مع إبليس).

المنظر الرابع

آدم : أخبريني، أيتها المرأة، ماذا طلب منك هذا الشيطان اللعين ؟ ماذا أراد منك ؟

حواء : كان يكلمني عن شرفنا.

آدم : لا تصدقي هذا الخائن... نعم، إنه خائن.

حواء : أعرف ذلك جيدا.

آدم : أنت ؟ كيف عرفته ؟

حواء : قلت لك : إني أعرف ذلك، فماذاتهم معرفة الطريق الذي وصلت به ؟

آدم : سيحملك على تغيير رأيك.

حواء : كلا، لأني لن أصدق شيئا يقوله قبل أن أختبره.

آدم : لا تدعيه يقترب منك منذ الآن، لأنه سيئ النية إلى أقصى حد، فقد سبق له أن أراد خيانة مولاه والسمو عليه. مثل هذا الشقي الذي لم يتورع عن ذلك السلوك، لا أريد أن يحظى منك بحسن استقبال.

(حية جيدة المحاكاة تصعد على جذع الشجرة المحرمة، حواء تقرب منها أذنها كما لو كانت تريد أن تنصت لنصيحتها. ثم تقتطف التفاحة، وتقدمها لآدم ولكنه يرفضها)

حواء : –كل، يا آدم، إنك تجهل كنهها، فلتأخذ هذا الخير الذي صادفنا.

آدم : – أهي طيبة ؟

حواء : – ستعرف ذلك... لن تستطيع معرفته دون أن تذوقها.

آدم : – إني أخافها.

حواء : – دع عنك هذا !

آدم : – لن آكل منها.

حواء : – إن ترددك يدل على حماقتك.

آدم : – إذن، سآخذها.

حواء : –كل منها، فتعرف الخير والشر، وسأبدأ أنا بالأكل منها.

آدم : – وأنا بعدك.

حواء : – إنها لا خطر منها (تأكل جزءا من التفاحة... لآدم) لقد ذقتها : الله ! ما أطيبها ؟ لا أعتقد أني ذقت شيئا أطيب منها. يالطيب مذاق هذه التفاحة !

آدم : ما مذاقها ؟

حواء : لم يتأت لإنسان أن ذاق مثلها. الآن انكشف الغطاء عن عيني حتى أصبحت أشبه الرب القدير. صرت أعرف كل ما كان، وكل ما لابد أن يكون، وأنا الآن أسيطر على كل شئ. فكل، يا آدم،

لا تتردد، خذ هذه التفاحة، إن ذلك من أجل سعادتك.

آدم : (يأخذ التفاحة من يد حواء) : سأصدق ما تقولين، فما أنت إلا نصف مني.

حواء : كل، فليس هناك ما تخشاه.

(آدم يأكل جزءا من التفاحة، وفي الحال يعرف خطيئته، فيطأطئ بصورة تجعل الجمهور لا يراه، وينزع عنه ملابس العيد، ويرتدي ملابس زريه مصنوعة من ورق شجرة التين، ثم يبدأ في الانتحاب وقد بدا على وجهه أشد أنواع الألم) ؟

آدم : وامصيبتاه ! ماذا ارتكبت، أنا، أيها الآثم ؟ لقد مت الآن، وانتهى الأمر، لقد مت دون رجعة، ما دمت قد هويت من عليا وضعي ! لقد تغير مصيري، ويا لسوء ما تغير ! كان من قبل مصيرا سعيدا، وها هو ذا الآن غاية في القسوة. هجرت خالقي اتباعا لنصيحة امرأة سيئة. وا مصيبتاه ! ماذا ارتكبت، أنا، أيها الآثم ؟ كيف لي أن أعول على خالقي الذي هجرته بحماقتي؟ لم يسبق لي قبل أن أعقد صفقة في مثل هذا الخسران. الآن عرفت معنى الخطيئة. آه ! أيها الموت، لماذا تتركني على قيد الحياة ؟! لماذا لم يتخلص مني العالم ؟ لابد لي أن أهوي إلى قاع الجحيم. في الجحيم سيكون مقري حتى يأتي من يخلصني، في الجحيم ستكون حياتي. وأني لي – هناك – بمن يأتي لنجدتي ؟ أني لي – هناك – بمن يخف لإنقاذي ؟! من ذا الذي سيخلصني من مثل هذا العذاب ؟ لماذا أراني سلكت هذا

السلوك المشين تجاه مولاي ؟ لقد ضعت دون رجعة، لقد بلغ سلوكي تجاه ربي درجة من السوء تجعلني عاجزا عن الدفاع عن نفسي أمامه، لأني على خطأ وهو على حق. أيها الرب، ما أبشع قضيتي! من ذا الذي سيتذكرني بعد اليوم ؟ إنني مذنب لا عذر له، لأني أذنبت في حق ملك المجد، في حق ملك السماء. ليس لي صديق ولا جار يستطيع أن يخلصني مما أنا فيه. من ذا الذي أسأله العون، إذا كانت زوجتي قد خدعتني، زوجتي التي منحني الرب إياها لتكون نصفي ؟ لقد وجهت إلى مشورة سيئة : آه، يا حواء ! (ينظر إلى حواء زوجته، قائلا :). آه أيتها المرأة الحمقاء، إنك لم تولدي مني إلا من أجل شقائي، ياليته كان قد حرق ذلك الضلع الذي قادني إلى هذا الوضع السئ ! ألا ليت النار كانت قد أبادت ذلك الضلع الذي ألقى بي في هذا الإضطراب الشامل ! لماذا لم يحرق الرب هذا الضلع حين أخذه مني ؟ لماذا لم يقتلني ؟ إن الضلع قد خان الجسم كله، وأصابه بالجنون، ووضعه في أسوأ حال. لم أعد أدري ما أقول أو أفعل. فإذا لم تتداركني نجدة من السماء، فلن أتخلص من هذا العذاب. هذا هو الداء الذي يعذبني. آه، يا حواء، لقد كان من سوء حظي أن جاء اليوم الذي أصبحت فيه زوجتي : يا له من عذاب أليم انقض علي في تلك اللحظة ! الآن أصبحت ضائعا بفضل مشورتك، وبفضل مشورتك ترديت في الشر، وهويت من أعلى مكان، ولن يستطيع إنسان حي أن يخلصني مما أنا فيه ما لم يتدخل آله الجلال. ماذا أقول ؟ وا أسفاه !! لماذا ذكرت اسمه ؟ أتراه

سيساعدني ؟ لقد أثرت غضبه. لن يستطيع أحد أن يقدم لي يد العون إلا الابن الذي سيخرج من أحشاء مريم. لا أدري ماذا سيحل بنا بعد أن فقدنا إيماننا بالله، والآن ليكن ما يريد الله أن يكون، فليس لي إلا أن أموت.

المنظر الخامس

(الجوقة تغني الآيه Lumdiam bularet وبعد النشيد يقبل الرب حاملا يطرشيلا ètole. ويدخل الفردوس وهو يتلفت فيما حوله باحثا عن آدم. ولكن آدم وحواء يختبئان في ركن من الفردوس مظهرين أنهما يعرفان سوء حالهما)

الرمز : آدم، أين أنت، يا آدم ؟

(ينهضان كلاهما واقفين أمام الرب، ولكنهما لا يقفان مستقيمين، بل منحنيين أمام عار الخطيئة، وقد بدا عليهما الحزن الشديد)

آدم : إني هنا أيها المولى الجميل. لقد اختبأت بسبب غضبك، وجثمت هنا لأني عار كل العري.

الرمز : ماذا فعلت ؟ كيف تأتي لك أن تحيد عن الطريق المستقيم ؟ من الذي انتزعك من حالتك السعيدة ؟ ماذا فعلت ؟ لماذا يعتريك العار ؟

آدم : كيف يجوز لي أن أدخل معك في سؤال وجواب ؟

الرمز : لم تكن، خلال اليوم السابق، تنطوي على شئ يشعرك بالعار، والآن أراك حزينا كئيبا، ومن تكون هذه حاله لابد أن يكون قلق الضمير.

آدم : لقد بلغ شعوري بالعار أمامك، يا مولاي، حدا جعلني أختبئ

الرمز : ولماذا ؟

آدم : هناك عار كبير يلطخني، فلا يجعلني أجرؤ على النظر في وجهك.

الرمز : لماذا لم تطع أمري ؟ أعاد عليك ذلك بالربح ؟ أنت عبدي وأنا مولاك.

آدم : لا أستطيع أن أقول لك عكس ذلك.

الرمز : لقد برأتك على مثالي : فلماذا خالفت وصيتي ؟ لقد صورتك على صورتي بكل دقة، وكان جزائي منك أن سببت لي كل هذه الإهانة. إنك لم تراع نهيي، وخالفته عامدا. لقد أكلت الفاكهة التي نهيتك عنها بكل صراحة، وأعتقدت أنك بذلك أصبحت ندا لي ! فهل تريد – يا ترى – أن تكون جفاخا مضحكا ؟

آدم : (يمد يده نحو الرب، ثم نحو حواء) : إن المرأة التي منحتني إياها هي أول من ارتكب هذه المعصية. فهي التي ناولتني الفاكهة، فأكلتها. والآن أرى أني فعلت ذلك لشقائي. لقد أخطأت حين أكلت منها. أسأت التصرف بسبب زوجتي.

الرمز : لقد صدقت زوجتك أكثر مما صدقتني، وأكلت الفاكهة دون

إذني. والآن ها هو ذا الثمن : ملعونة الأرض التي تبغي أن تبذر فيها قمحك، إنها لن تحمل ثمارا من أجلك. إنها ستكون ملعونة تحت يدك، ومن العبث أن تحاول استثمارها. من أجلك ستصبح عقيما، ولن تنتج غير الشوك والحسك، وستصبح بذورك ملعونة تحت الحكم الذي قضى به عليك، ولذا سيعتريها الفساد بالكدر والنصب ستأكل خبزك، وبعرق جبينك طوال الليل والنهار ستعيش. (يلتفت إلى حواء وعليه سيما التهديد): وأنت، يا حواء، أيتها المرأة السيئة، لقد أعلنت علي الحرب، ولم تراع وصاياي.

حواء : الحية الملعونة هي التي خدعتني.

الرمز : بسببها اعتقدت أنك ستصبحين ندا لي ؟ والآن أتستطيعين أن تخمني ؟ فيما مضى كانت لكما السيادة على كل ما تدب فيه الحياة، فكيف فقدتها بهذه السرعة ؟ ها أنت ذي حزينة خجلة. أترين أنك رابحة أم خاسرة سأجازيك بما أنت أهل له، وسأدفع لك الثمن الذي يستحقه عملك.

ستنقض عليك المصائب من كل جانب. ستحملين أولادك كرها، وستلدينهم كرها، وسيقضون كل حياتهم غارقين في بحر من القلق. هذه هي الآلام، هذا هو الخراب الذي ألقيت بنفسك فيه، أنت وذريتك وكل من سينحدرون منك سيبكون على خطيئتك.

حواء : لقد أتيت عملا سيئا ! وكان ذلك في لحظة جنون. فمن أجل تفاحة سأعاني كل هذا الضرر الذي سيغمرني بالألم، أنا وذريتي.

فائدة صغيرة تكبدني عقابا كبيرا. وإذا كنت قد أذنبت، فلم يكن ذلك من غرائب الأمور، لأن الحية الملعونة هي التي خدعتني. فهي خبيرة في ميدان الشر ولا تمت إلى النعجة بشبه. ومن الخطل أن يتخذ المرء منها نصيحة، لقد أخذت التفاحة، والآن أعلم أني ارتكبت حماقة، لأنك كنت قد حرمتها، ومن ثم أعترف بأني قد اقترفت خيانة ! لقد أخطأت حينما ذقتها، وها أنذى موضع لبغضك، فمن أجل ثمرة ضئيلة لا أرى لي محيصا من فقدان الحياة.

الرمز : (مهددا الحيه) وأنت أيتها الحية، كوني ملعونة ! سأسترجع منك حقوقي. ستزحفين على بطنك ما دمت على قيد الحياة. ولن تأكلي غير التراب، سواء أكنت في الغابة أم في السهل أم في البرية. وستقوم البغضاء بينك وبين المرأة حيث ستظل عدوة لك إلى الأبد، ستسعين إلى لدغ عقبها، وستقوم هي بنزع حمتك. وتسحق رأسك بمطرقة ثقيلة تسبب لك أقصى أنواع العذاب. وستحرص أيضا على الانتقام منك. لقد أخطأت حين دبرت خيانتها، فإنها سترغمك على إحناء رأسك. وسيأتي يوم يخرج فيه من بين أحشائها سليل يكشف عن ضروب نفاقك كلها. (ثم يطردهم الرب من الجنة قائلا :) والآن، اخرجوا من الجنة، فقد استبدلتم بها دار إقامة سيئة. على الأرض ستشيدون بيوتكم، ولم يصبح لكم أي حق في الجنة، وليس لكم أن تطالبوا بشئ فيها. ستخرجون منها دون عون. ليس لكم فيها أي حق. فاتخذوا لكم في غيرها مقرا. وبخروجكم منها ستحلى عنكم السعادة. ومنذ

الآن ستعرفون الجوع والتعب، ستعرفون العذاب والألم خلال أيام الأسبوع جميعا. وستكون إقامتكم فوق الأرض إقامة سيئة، ثم تموتون في نهاية الأمر، ولا تكادون تذوقون الموت حتى تذهبوا إلى الجحيم من فوركم. ستكون الأرض مأوى أجسامكم، أما أرواحكم، فإلى الجحيم مأواها حيث يقف الهلاك لها بالمرصاد. وستصبحون تحت سلطام الشيطان، ولن يكون في مقدور أحد أن يحفظكم منه، لن يستطيع أحد أن يكون لكم عونا إذا أنا لم تأخذني بكم شفقة (الجوقة تغني الآية Jmsudore vultus tui) وحيئذ يأتي الملاك مرتديا لباسا أبيض وممسكا بيده سيفا متوهجا.

(الرب يوقفه على باب الفردوس ويقول له :)

الرمز : احرس لي الفردوس جيدا. واحذر أن تدخلها هذه الذرية الطالحة. واحرص على ألا يحصل على القدرة أو الإذن بمس فاكهة الحياة بل سد عليه الطريق بهذا السيف المتوهج.

(وحين يخرج آدم وحواء من الجنة يظلان متعبين مطأطئي رأسيهما حتى يمسا الأرض، ويبدو عليهما الحزن والخجل. الرب يشير إليهما بيده وقد أدار عنهما وجهه نحو الفردوس، في حين تترنم الجوقة بالآية quasi Unus وبعد النشيد يرجع الرب نحو الكنبه)

المنظر السادس

"يرى آدم وبيده الفأس، وحواء ومعها المجرفة وقد بدآ يفلحان الأرض، ويبذران فيها القمح. ثم يذهبان لانتحاء مكان يجلسان فيه قليلا من فرط التعب في العمل، ويريان من حين لحين يرفعان بصريهما نحو الجنة وهما يبكيان، ويضربا بأيديهما على صدريهما. وفي هذه الأثناء يقبل الشيطان ويغرس الشوك والحسك في أرضهما، ثم يذهب. آدم وحواء يرجعان، ولا يكادان يريان الشوك والحسك حتى يتملكهما الهم الشديد، ويأخذان في فرع صدريهما وفخذيهما بحركات وإشارات تدل على الألم، ويبدأ آدم في الانتحاب) :

آدم : وا أسفاه ! ما أضعفني أمام شقوتي التي رأيتها منذ اليوم الذي انقضت فيه خطيئاتي علي، لأني هجرت مولاي المعبود. من ذا الذي يستطيع أن يخف لنجدتي ؟ (ينظر إلى الفردوس ويداه ممدودتان – نحوها، وقد طأطأ رأسه في خضوع ويتابع نحيبه) أيها الفردوس، أيها المقام الجميل، يا حديقة المجد، ما أجمل النظر إليك ! الحقيقة أني طردت منها بسبب خطيئتي، وقد فقدت كل أمل في العودة إليها. كنت فيها، ولم أكد أستمتع بها، صدقت المشورة التي لم تلبث أن أدت إلى طردي، والآن أراني نادما، ويحق لي أن أحزن عليها، ولكن فات الأوان، ولم يصبح في مقدور لهفاتي أن تفعل شيئا. أين كانت بصيرتي ؟ أين كان عقلي حين هجرت ملك المجد من أجل إبليس ؟ ها أنذا الآن

أتألم، ولكن دون جدوى. إن خطيئتي ستسجل في التاريخ. (يمد يده نحو حواء التي تقف وحدها أعلى منه قليلا، ويهز رأسه في حنق شديد). آه ! أيتها المرأة السيئة المفعمة بالخيانة! لقد سارعت بدفعي إلى حتفي حين عملت على فقدان بصيرتي وعقلي. إني نادم على ما كان، وليس لي أن أطمع في أي غفران. يا حواء التعسة ! ما كان أسرعك إلى الشر حين عجلت بتصديق نصيحة التنين ! بخطيئتك أصبحت في عداد الأموات... نعم، لقد فقدت الحياة. أما خطيئتك فستسطر في الكتاب. أترين الأشراط الدالة على الانقلاب الهائل ؟ لقد حلت بالأرض لعنتنا بذرنا قمحا فأنتج لنا حسكا. انظري إلى بداية عقابنا : إنه ألم هائل بالنسبة لنا، ولكن الألم الذي ينتظرنا أشد منه هولا. فسنساق إلى الجحيم، واعلمي أننا هناك لن نعدم الألم، ولا العذاب. فماذا ترين، يا حواء المسكينة ؟ هذا هو ربحك، هذا هو المهر الذي قدم لك ! لن تستطيعي أبدا أن تجلبي للرجل خيرا، بل ستكونين دائما للعقل عدوا. وكل أولئك الذين سيخرجون من أصلابنا سيعانون جراء جرمك. لقد أخطأت، وسيحكم عليك هؤلاء جميعا. أما الذي سيرد إليك اعتبارك، فلن يأتي إلا بعد زمن طويل.

حواء : يا آدم، أيها السيد الجميل، لقد أطلت في لومي، ذكرتني رذيلتي وعنفتني عليها، فإني إذا كنت قد أذنبت، فإني أعاني عقاب ذنبي. إني مدينة، والله هو الذي سيحاسبني. لقد أجرمت أفدح

الجرم في حق الله، وفي حقك. وذكرى جرمي ستظل حية زمنا طويلا. إن خطئي لشديد، وإني لأكره خطيئتي. إني شقية، محرومة من كل خير. وليس لي أن أطلب من الله حمايتي، وأنا الآثمة الكبيرة. فاغفر لي، لأني لا أستطيع التكفير. ولو كان في مقدوري أن أكفر لقدمت قربانا. آه، أيتها الآثمة ! آه، أيتها التعسة ! آه أيتها الضعيفة ! إن خطيئتي تملؤني بالخوف من الله، فخذني، إذن، أيها الموت، ولا تتركني للحياة. ها أنذى في خطر، ولن أستطيع الوصول إلى بر النجساة. إن الحية الخائنة، إن التنين الملعون قد أغراني بأكل تفاحة التعاسة. فقد متهالك، وأنا أعتقد أني أفعل الخير، فسقتك إلى خطيئة لا أعرف كيف أخلصك منها! لماذا لم أطع أمر الخالق ؟ لماذا، يا مولاي، لم أحافظ على تعاليمك ؟ لقد أخطأت يا آدم، ولكني أنا أصل دائنا الذي لا يبدو شفاؤه قريبا. إن جريمتي، إن مغامرتي المشئومة ستكلف أولادنا ثمنا غاليا. كانت الفاكهة حلوة المذاق، ولكن العقاب شديد ! ولقد أكلناها من أجل شقائنا، وسيدوم عقابنا. ومع ذلك، فإن لي أملا في الله، وسينتهي بأن يغفر لي هذه الغلطة. سيرد الإله إلى فضله وقربه من جديد، وسينقذنا من الجحيم بقدرته.

(يدخل الإله ومعه ثلاثة شياطين أو أربعة تحمل في أيديها سلاسل وقيودا فتضعها حول عنقي آدم وحواء. ويأخذ البعض في دفعهما إلى الجحيم، والبعض الآخر في جرهما وتقابلها شياطين أخرى، ترقص مظهرة بذلك سرورها لخسراتهما. وحين تراهما طائفة أخرى من الشياطين، تشير

إليهما بالأصابع ونلقي القبض عليهما، ونقليهما في الجحيم. بتصاعد دخان كثيف مع صيحات مرح وأزيز مراجل، وقدور تقرع فيما بينها.. وبعد لحظات تخرج الشياطين، وتعدو في كل اتجاه من المكان، فيما عدا بعضها التي تبقى في الجحيم)

المنظر السابع

(يدخل قابيل وهابيل. قابيل يرتدي ملابس حمراء، أما ملابس هابيل فيهضاء. يفلحان الأرض التي تم تحضيرها. ثم يبدأ هابيل – الذي يأخذ لنفسه شيئا من الراحة – في توجيه الكلام إلى أخيه بصوت عذب ودود).

هابيل : يا قابيل، إننا أخوان، ابنا أول رجل، وهو آدم. وحواء اسم أمنا، فلا يصح لنا أن نسلك سلوك الأخساء في خدمة الرب، ولنخضع دائما للخالق، ولنخدمه بصورة تجلب لنا حبه الذي فقده أبوانا بحمقهما، وليحب كلانا الآخر حبا ثابتا قويا، ولتتفان في خدمة الله خدمة تجلب له السرور، ولنؤد إليه حقه دون تحفظ، فإذا عملنا على طاعته من كل قلبينا، لم يكن لروحينا أن تخشيا الهلاك، ولنؤد إليه زكاته وجميع حقوقه، من حاصلات وقرابين وعطايا وضحايا، فإننا إذا استسلمنا لإغراء منعها، كان جزاؤنا الخسران في الجحيم دون رجعة، ولتكن علاقة ما بيننا قائمة على التعاطف العظيم دون حسد ودون انتقاص، فلماذا يثور الخلاف بيننا، وهذه الأرض كلها في متناول أيدينا ؟

قابيل : (ناظرا إليه بسيما السخرية) أخي الجميل هابيل. إنك تعرف كيف تجيد الوعظ، وتروض عقلك، وتعرض ثمرات فكرك، ولكن من يصغي إلى دروسك لا يبقى لديه – بعد بضعة أيام – إلا القليل مما يستطيع إعطاءه، وأنا لم أرحب قط بإيتاء الزكاة، وفي وسعك أن تجزل عطاءك من ملكك الخاص. أما مالي فإني سأفعل به ما يحلو لي، ولن تحل بك اللعنة من أجل خطيئة ارتكبها أنا. وإذا كانت الطبيعة تعلمنا أن يحب كل منا صاحبه، فليرتفع من بيننا كل رياء، فعلى من يبدأ منا بإعلان الحرب على أخيه أن يتحمل تبعة عمله، ولا يلومن إلا نفسه،

هابيل : (بصوت أكثر عذوبة) قابيل، يا أخي الجميل، اصغ إلي،

قابيل : بكل سرور، فماذا تريد ؟

هابيل : أريد خيرك.

قابيل : لحسن الحظ.

هابيل : لا تثر أبدا ضد الرب، ولا تصعر خدك غرورا، صدق ما أقول.

قابيل : لست إلا راغبا في ذلك،

هابيل : اتبع نصيحتي، ولتحمل إلى الإله الرب قربانا يروقه، فإننا إذا أرضيناه، لم تنقض علينا الخطيئة أبدا، ولم يستول علينا الحزن مطلقا، إذ من الخير أن نسعى إلى اكتساب حبه، هيا، ولنقدم على مذبحه قربانا نرجو أن يجذب انتباهه، ولنتوسل إليه أن

يمنحنا حبه، وأن يحمينا بالليل والنهار !

قابيل : (وكأنه استحسن نصيحة هابيل) أخي الجميل هابيل، لقد تكلمت فأحسنت الكلام، وصغت موعظتك في خير أسلوب، وسأتبعها. هيا نقدم قرباننا، فإنك على حق. ماذا ستقدم ؟

هابيل : سأقدم حملا، خير ما في منزلي من حملان وأجملها. هذا ما سأقدمه، وليس شيئا آخر، ولكني سأضيف إليه البخور. ذلك ما أستقر عليه عزمي. وأنت، ماذا ستقدم ؟

قابيل : سأقدم بعض قمحي، كما وهبني الله إياه.

هابيل : من خير ما لديك.

قابيل : كلا، في الحقيقة. إن خير ما لدي ساصنع منه خبزا هذا المساء.

هابيل : هذا قربان غير مقبول.

قابيل : ماذا نقول ؟ لعلك تمزح.

هابيل : أنت رجل غني، ولديك ماشية كثيرة.

قابيل : نعم.

هابيل : ألا تعدها بالرأس، وتؤتي عنها الزكاة ؟ إنك ستقدمها إلى الرب نفسه، فقدمها عن طيب خاطر تنل منه خير الجزاء. أهذا ما ستفعل ؟

قابيل : كلا، وألف كلا، أيها الأخ الجميل، يا لها من حماقة ! أتريد ألا يبقى لدى من كل عشر مواش أملكها غير تسع ؟ إن نصيحتك

هذه لا تساوي شيئا. هيا، وليقدم كل منا ما يريد.

هابيل : هذا ما أوافق عليه.

قابيل : يذهبان نحو حجرين كبيرين جهزا من قبل لهذا الغرض، ووضعا متباعدين بعض الشئ أحدهما عن الآخر بحيث إذا ظهر الرب كان حجر هابيل عن يمينه وحجر قابيل عن يساره. هابيل يقدم حملا، وبعض البخور الذي يتصاعد دخانة نحو السماء. ويقدم قابيل حزمة قمح. وعلى أثر ذلك يظهر الرب، فيبارك قرابين هابيل ويرد قرابين قابيل. بعد التقديم يلقي قابيل نظرة وعيد على هابيل، ثم يذهب كل منهما إلى حال سبيله

قابيل : (وقد عاد نحو هابيل، وأخذ يحاول استدراجه إلى الخارج لكي يقتله) هيا نخرج

هابيل : لماذا.

قابيل : لكي نريح جسمينا، ونرعى عملنا، وترى ما إذا كان قمحنا قد نما وغطاه النور. وسنرجع بعد ذلك، حيث نكون أكثر نشاطا

هابيل : سأذهب معك حيثما أردت.

قابيل : هيا إذن، فهذا خير ما تفعل

هابيل : أنت أخي الأكبر، وسأفعل كل ما تأمر به.

قابيل : تقدم أمامي، وسأتبعك على مهل وبخطى بطيئة.

(يذهبان إلى مكان منعزل، ويكاد أن يكون مختبئا، حيث ينقض قابيل كالمجنون على هابيل لكي يقتله)

قابيل : إنك ميت يا هابيل.

هابيل : أنا ؟ لماذا

قابيل : أريد أن أنتقم منك

هابيل : هل ترى أني ارتكبت جرما ؟

قابيل : نعم، أنت خائن، وهذا ما قام عليه الدليل.

هابيل : كلا، بكل تأكيد.

قابيل : أتنكر ذلك

هابيل : أنا لم أمل إلى الخيانة قط.

قابيل : ولكنك ارتكبتها ؟

هابيل : أنا ؟ كيف ذلك ؟

قابيل : ستعرف بعد قليل.

هابيل : لست أفهم شيئا.

قابيل : سافهمك بعد قليل

هابيل : الحقيقة أنك لن تستطيع مطلقا أن تقدم الدليل على ذلك.

قابيل : ليس الدليل ببعيد.

هابيل : الله في عوني

قابيل : سأقتلك

هابيل : الله مطلع

قابيل : (مهددا إياه برفع يده) : هذا هو الدليل.

هابيل : إن اعتمادي كله على الله.

قابيل : إنه لن يجيرك مني.

هابيل : في مقدوره أن يخجلك.

قابيل : لن يستطيع أن يجنبك الموت.

هابيل : ليس لي إلا أن أستسلم لقضائه في كل أمر.

قابيل : سأخبرك بالحقيقة. إنك أصبحت وثيق الصلة بالرب الذي رفض لي كل شئ من أجلك، وبسببك رد قاباني. أتظن أني لن أحملك على دفع الثمن ؟ سأقابلك بما أنت جدير به. سأتركك على هذه الأرض مجندلا.

هابيل : إنك إن قتلتني ارتكبت إثما، ولابد أن ينتقم الله منك لموتي، الله يعلم أني لم أعمل شرا، ولم أفسد ما بينك وبينه، بل لقد نصحتك – على العكس من ذلك – بأن تسير على المنهج

الذي يليق بسلامه، فقدم له الحمد الواجب له، وقدم له الزكاة والبواكير والقرابين، وبذلك تكسب حبه. وإذا لم تفعل ذلك، حل بك غضبه. إن الرب حق، وهو يحسن معاملة من يخدمه، ولا يقضي عليه بالهلاك.

قابيل : أنت كثير الكلام، وستموت من فورك.

هابيل : ماذا تقول، يا أخي ؟ أتهددني ؟ لقد جئت هنا إلى الخارج ثقة في وعدك.

قابيل : لم تعد في حاجة إلى ثقة، فسأقتلك، وهذا ما يجب أن تتأكد منه.

هابيل : أدعو الله أن يشملني برحمته.

هابيل يجثو على ركبتيه متجها نحو المشرق (ويجب أن يضع الممثل تحت ملابسه قربة مختفية، فيضر بها قابيل كما لو كان يقتل هابيل نفسه.

يبقى هابيل ممددا على الأرض وقد فقد الحياة. الجوقة تغني الاية: أين هابيل أخوك ؟

المنظر الثامن

(في هذه الأثناء يقبل الرب من الكنيسة نحو قابيل، وبعد انتهاء الإنشاد يخاطبه في غضب)

الرمز : قابيل أين أخوك هابيل ؟ هل بدأت الثورة ؟ إنك قد اشتبكت

معي في خصام، والآن أرني أخاك حيا.

قابيل : أأعرف أنا، يا مولاي، أين ذهب ؟ وما إذا كان في البيت أم في حقل القمح؟ لماذا يتحتم علي أن أعثر عليه ؟ إني لم التزم بحراسته.

الرمز : ماذا فعلت به ؟ أين وضعته؟ إني أعرف ذلك جيدا، أعرف أنك قتلته. فقد صاح دمه يخبرني بذلك، وصعدت إلى روحه في السماء. لقد ارتكبت جريمة منكرة، وستظل ملعونا طول حياتك، لن تفارقك اللعنة مطلقا. هذه هي الجريمة، وهذا هو العقاب. لا أريد أن يقوم إنسان بقتلك، بل أريد أن نقضي حياتك في العذاب، وإذا أقدم حد على قتل قابيل أنتقمت لقابيل سبع مرات. إنك قتلت أخاك الذي وضع ثقته فيك، وسيكون عقابك شديدا.

(ثم يتجه الرب نحو الكنيسة. تقبل الشياطين وتقود قابيل إلى الجحيم بقسوة، وهي تنهال بالضربات الشديدة على رأسه وكتفيه، كما أنها تحمل هابيل أيضا، ولكن بلطف)

وفي هذه الأثناء يظل الأنبياء مختبئين على استعداد للظهور متتابعين، ويتقدم كل نبي في جلال بعد أن ينادي اسمه، ويتلو نبوءته بصوت واضح متميز النبرات. وبعد أن ينتهي كل شئ، يقوده الشيطان إلى الجحيم)

نبوءة أشعيا

ومن بعده (يأتي أرميا) يأتي إشعيا ممسكا بيده كتابا، ومرتديا عباءة فضفاضة، ثم يتلو نبوءته.

" سيخرج من جذع يسي قضيب، وتنبت من جذعه زهرة تحمل عليها روح الرب "

إشعيا : سأقول لكم قولا عجيبا :

سيخرج من جذع يسي

غصن تخرج منه رهرة،

تصبح جديرة بشرف عظيم،

سيوليها روح القدس عنايته،

وعليها سيتخذ راحته.

(وحينئذ يصعد رجل من المعبد ليجادل إشعيا، ويقول له :)

يهوذا : هذا هو جوابي، يا سيد إشعيا :

أهي خرافة أم نبوءة

تلك التي تفوهت بها هنا ؟

أأنت الذي وجدتها أم هي مكتوبة ؟

أأنت نمت وحلمت بها،

أهي يقين أم مزاح ؟

إشعيا : إنها ليست خرافة، بل كلها حقيقية.

يهوذا : إذن، فأرنا حقيقتها.

إشعيا : إن ما قيل ليس إلا نبوءة.

يهوذا : أهي مكتوبة في كتاب ؟

إشعيا : نعم في [كتاب] الحياة.

إنها ليست حلما، بل رؤيا.

يهوذا : وكيف رأيتها ؟

إشعيا : بحق الله.

يهوذا : يبدو لي أنك هرم مخرف،

ولقد أصبحت مضطرب العقل قبل الأوان،

هذه هي الحال التي يبدو لي أنك صرت إليها.

أتعرف جيدا كيف تنظر في المرآة ؟

إذن فانظر في يدي هذه،

(وحينئذ يمد أمامه يده)

لترى ما إذا كان قلبي مريضا أم سليما.

إشعيا : إن فيك داء الخيانة

الذي لن تبرأ طول حياتك.

يهوذا : أأنا مريض ؟

إشعيا : نعم، بالضلال.

يهوذا : متى أبرأ منه ؟

إشعيا : لن تبرأ منه في أي يوم، على وجه التأكيد.

يهوذا : إذن، استأنف نبوءتك.

إشعيا : إن ما أقوله ليس هراء.

يهوذا : إذن، أعد علينا الكلام عن رؤياك،

وما إذا كان ذلك غصنا أم عصاة،

وعما سينتج عن زهرته.

وحينئذ سنعتبرك أستاذا،

وهذا الجيل

سينصت إلى درسك

إشعيا : إذن، أنصت إلى العجيبة الكبرى

التي لم تسمع بمثلها أذن قط،

تلك التي لم يسمع بمثلها – مجرد سماع –

منذ وجد هذا العالم.

ها هي ذي العذراء تحمل، وتلد أبنا، وتسميه عما نوئيل.

إنه قريب، وليس بعيدا،

لن يتأخر وقوعه، بل هو بين يدينا،

ذلك أن العذراء ستحمل،

وستلد العذراء ولدا

يسمى عما نوئيل،

ويكون رسوله القديس جبرائيل.

العذراء هي العذراء مريم،

إنها ستحمل ثمرة الحياة،

عيسى مخلصنا

الذي سيخلص آدم من العذاب،

ويعيده إلى الجنة :

وهذا الذي أقوله لكم قد جاء من عند الله.

إنه حقيقة مقررة،

وذلك ما لابد أن يحيى الأمل.

معجزة المرأة

التي نجتها السيدة العذراء من الحريق

هذه المعجزة إحدى معجزات السيدة العذراء التي نجدها في مخطوطة رائعة مزينة بالمنمنمات محفوظة بالمكتبة الأهلية، وهي مخطوطة " كانجيه ٨١٩، ٨٢٠ " من القسم الفرنسي، ويبدو أن تاريخها يرجع إلى النصف الثاني من القرن الرابع عشر، وأنها تكون القائمة Réperloire الدرامية لإحدى الجمعيات الباريسية، وتجمع هذه المعجزات بين نوع من الصوفية لا يخلو من السذاجة في غالب الأحيان – وإن كان مؤثرا في بعض الأحيان – وبين نوع من التصوير لعادات العصر لا يخلو من لذة، وموضوعاتها جد متنوعة، ولكنها جميعا تحث على التفاني في تمجيد العذراء. أما مؤلفوها فمجهولون.

اللوحة الأولى

غليوم : أريد، يا جيبور، أن أخبرك بعزمي : سأذهب إلى الحقل دون إبطاء لكي أتفقد حاصلاتي، ولكي أضمن – باعتباري رجلا بعيد النظر – وجود عمال الحصاد : فإني أعرف أنه قد آن أوانه، ولم يعد من الممكن أن ننتظر.

جيبور : كما تريد، يا سيدي. فلست أريد أن أعارضك في شئ، وأنا واثقة من أنك سديد الرأي، ولا يسعني إلا الموافقة على رأيك.

الابنة : آه ! أرجو أن توافق، يا أبي العزيز، على أن أذهب معك، ففي ذلك لي بعض التسلية، وقد مر على وقت طويل لم أخرج فيه من هنا، وليس في الإمكان أن أجد لي صحبة خيرا من صحبتك.

غليوم : تعالي، إذن، يا ابنتي ما دام ذلك يسرك.

الابنة : هيا، يا سيدي، إني جاهزة. وداعا، يا أمي.

جيبور : احذرا أن تسيرا في مكان طرقه غير مضمونة.

(يخرج جيوم وابنته. جيبور تخاطب زوج ابنتها).

إنه ليسر زوجتك – يا أوبان – أن تذهب مع أبيها. وأنا ذاهبة إلى الكنيسة، يا صهري. ألا تريد أن تصحبني إليها ؟

أوبان : لو رفضت لك ذلك، لاعتبرت نفسي غير حكيم. هيا، يا سيدتي : إنه ليسرني أن أعمل وفق إرادتك.

جيبور : هيا. فلا شك أني سأكون جد مسرورة، إذا استطعت الحصول على مكان قريب من الواعظ، وبعيد عن الضوضاء. هيا بنا !

اللوحة الثانية

الجار الأول : هيه ! انظر، يا جوتييه ! ألا ترى أن زوجة العمدة تصحب زوج ابنتها ؟ لقد أكد لي بعضهم أنهما اصبحا شخصا واحدا.

الجار الثاني : يشاع في المدينة أنه يعاملها كما لو كانت زوجته، وهذا – في رأيي – عار كبير بالنسبة لكل منهما.

الجار الأول : هذا حق، ولكنهما لن يتخليا عن هذه الصلة، مهما قلنا، فهيا بنا نحضر قارورة النبيذ التي قررنا شربها معا.

هذا خير ما في وسعنا أن نفعله : ما رأيك في ذلك ؟ ألست على صواب ؟

الجار الثاني : لن أرفض : هيا، يا روبير (يخرجان).

جيبور : أريد أن أركع هنا. فإذا لم ترد أن تنتظر، وفضلت أن تذهب للتسلية في المدينة، فإني لن أمنعك.

أوبان : نعم، أريد ذلك بكل سرور، فلم أتعود البقاء في الكنيسة كل هذا الوقت من أجل الصلاة لله، أو الإصغاء إلى الوعظ (يخرج).

جيبور : (تدعو) : يا سيدة السماوات العلى، ما أتعس شخصا لا ينقطع لخدمتك، ولكن ما أسعد طالع الشخص الذي يهبك قلبه وتفكيره ! ذلك لأنه لا ينخرط أحد في سبيل الشر إلا وتأتين لنجدته، حتى أنه لا يلبث أن يرى نفسه وقد تخلص من آلامه

منذ اللحظة التي ينقطع لك فيها. أنت يا من في السماء حقيقة بجوار الجوهر الإلهي، ومن له السيادة والسلطان على جميع القديسين، أرجوك يا عذراء، بلطفك السامي، أن تكوني لي ملجأ، وأتوسل إليك في ذلك بكل قلبي. وقبل موتي طهري روحي، حتى إذا ما حان انفصالها عن هذا الجسد استطاعت أن تتجنب ليل الجحيم، وأن تكسب تراث السماوات الذي أهفو إليه بكل ما في من قوة.

اللوحة الثالثة

العراب : سيدتي العرابة، أرجو الله أن يمنحك يوما طيبا.

جيبور. سيدي العراب الجليل، نرجوه أن يغفر لنا ذنوبنا ! كيف حال عرابتي ؟ أرجو أن تكون على ما يرام.

العراب : نعم، الحمدلله ! وأنت، يا سيدتي العرابة ؟

جيبور : بخير. وإني أحمد الله، يا عراب، لأنه أكرمنا، فجعلنا نختار لابنتنا زوجا لطيفا كهذا الزوج. أعتقد أنه لم يكن في مقدورها أن تجد خيرا منه.

العراب : يا سيدتي العرابة، يؤلمني أشد الألم أن أسمع الناس ينهالون باللوم والتجريح على شخص يحتم على حبي إياه أن أدافع عنه بكل قواي، وأن أحذره من أجل المحافظة على شرفه.

جيبور. لماذا تتكلم هذه اللغة ؟ قل لي، يا عراب.

العراب : سأشرح لك ذلك، يا عرابتي. يروج الناس في كل مكان من هذه المدينة إشاعات شريرة حولك وحول صهرك، ويدعون أنك تكنين له نوعا من الحنان الآثم، وأنكما تكونان معا شخصا واحدا، هذا ما يقال في كل مكان، كما يدعي بأنه لا يبدو على هذا النحو من اللطف إلا لأنه محبوب من الأم والإبنة على السواء.

جيبور : وا أسفاه ! أتروج عني في المدينة مثل هذه الشائعات ؟ أقسم لك بما لك عندي من مقام – يا سيدي العراب – بأن هذه كلها إشاعات زائفة. لا أدري من الذي روج كل ذلك، ولكن لا شك أنه ارتكب خطيئة عظمى. لا قدر الله لي أن أوصم بارتكاب مثل هذا العمل !

العراب : سيدتي العرابة، إني أحذرك بحسن نية، والله على ما أقول شهيد. فلا تمدحيني، ولا تلوميني، يا عرابتي الجليلة !

جيبور : إني أشكرك على ذلك، يا سيدي العراب، وأرجوك، إذا سمعت هذه الشائعات مرة أخرى، أن تكذبها بكل قواك

العراب : أنا واثق من براءتك كل الثقة، والآن أدعو الله أن يحيطك بحمايته ! وإلى اللقاء.

جيبور : بارك الله لك في يومك، يا سيدي العراب ! شكرا لك. (تبقى وحدنا) ما هذا، يا أم الإله الحبيبة ؟ ماذا جرى للناس حتى

يظنوا بي هذا الظن دون سبب ودون علة ؟ أقسم أن هذه خيانة عظمى. ماذا في مقدوري أن أفعل ؟ إني أتألم وأبكي وأنتحب. ماذا أفعل، يا أم الآله الحبيبة ؟ لن يهدأ لي بال حتى أجد الوسيلة التي أمحو بها تلك الشائعة التي روجوها ضدي.

اللوحة الرابعة

الحصاد الأول : زميلي وصديقي سلفستر، هيا بنا إلى الميدان، لنرى ما إذا كنا نجد سيدا. إننا لا نملك مليما، ولا يصح أن نغادر هذه المدينة دون أن نربح بعض المال.

الحصاد الثاني : هذا رأي صائب، يا مندو، هيا بنا. إني مستعد، وها هو منلجي، فخذ منجلك، أنت أيضا. ولننطلق ! سر إلى الميدان مباشرة.

الحصاد الأول : ها أنذا أذهب، اتبعني. إن الصباح لا يزال مبكرا، يا سلفستر، انظر، ليس في الطريق سوانا.

الحصاد الثاني : لا ضرر من ذلك، يا مندر : فخير المرء أن يكون الأول من أن يكون الأخير. وإذا شاء الله، فإننا لن نلبث أن نعثر على شخص ما يمكننا من ربح بعض المال.

جيبور : (داحلة) : لن يعرف قلبي معنى السرور حتى أمحو هذا العار الذي لحق بشرفي. ولكنني لا أعرف كيف أصل إلى ذلك، إلا أن يكون بموت صهري. لا شك أنه يجب على أن أعمل على

ذلك. لا فائدة لمالي إذا أنا لم أبذل منه لأحد الغرباء ما يكفي لإقناعه بقتله بيديه. والواقع أن هذه هي اللحظة المواتية، لأن هناك كثيرا من العمال الغرباء الذين أقبلوا من كل مكان يبحثون عن رزقهم في عرض الطريق. يحب على المرء أن يختار أخف الضررين. سأذهب من فوري إلى الميدان لأرى ما إذ كنت أجد أحدا أكلمه في هذه المسألة. نعم أني أرى هنالك عملاقين تبدو عليهما القوة والجرأة والاستعداد لإرتكاب أي منكر. أيها السادة، أجئتما هنا من أجل العمل ؟

الحصاد الأول : نعم، يا سيدتي، أأنت في حاجة إلينا ؟

جيبور : ربما، من أين اقبلتما ؟ قولا لي.

الحصاد الأول : إننا من كيروتوا، ونعرف كيف نحصد القمح وندرسه، فإذا كانت لديكم حقول تحتاج إلى حصاد، فإنه يسرنا أن نعقد معكم صفقة، وسيتم العمل بسرعة وإتقان، يا سيدتي.

جيبور : أيها السادة الأجلاء، إنني امرأة تستطيعان معها أن تربحا كثيرا دون مساومة، إذا أردتما.

الحصاد الثاني : بشرفي، يا سيدتي، إن ذلك يسرنا كثيرا، فماذا تريدين عمله ؟

جيبور : أريد منكم – قبل أن أكلمكم في مسألتي – أن تقسما لي على المخلفات المقدسة بأنكما لن تفشيا كلامي لرجل أو امرأة، وبعد

ذلك سأشرح لكما قصدي.

الحصاد الثاني : أما من جهتي فإني أبادر، يا سيدتي، بأن أقسم لك بأنه لن يطلع أحد على سرك دون إذنك.

الحصاد الأول : وأنا أيضا، يا سيدتي، أؤكد لك أنه لن يعرف مني أحد شيئا. فكلمينا – إذن – عما تريدين، وأنت مطمئنة.

جيبور : هذه هي رغبتي، أيها السادة : أريد منكما معا أن تقتلالي رجلا، بالرغم من أنه من إصدقائي. خذا من مالي ما تشاءان، فإني موافقة على ذلك. فقد تلوث شرفي بسببه، هذا ما تجري به الإشاعات، وإن قلبي ليشعر من جراء ذلك بالحزن والكآبة إلى الحد الذي يعجز لساني عن وصفه.

الحصاد الثاني : سيدتي، سيدتي، سواء أكان ذلك عن خطأ أم عن صواب، فإني أنا وزميلي... أسلميه إلينا، أسلميه، وسيتم كل شئ تبعا للقواعد، ودون أن يستطيع الإفلات منه.

الحصاد الأول : نعم. ولكن يلزمنا الوقت الذي يمكننا من إنجاز هذا العمل دون أن يرانا أحد.

جيبور : سأخبركما فورا بالطريقة. سأضعكما في مخزن مؤني، وأرتب أمري على أن أرسله لإحضار بعض النبيذ، فإذا أمسكتما به، فلقتلاه دون إحداث جرح أو إسالة دم من البطن أو الرأس أو الجانبين، بل اختقاه.

الحصاد الثاني : سيتم ذلك فورا : ضعينا إذن في مخزن مؤنك وتكفلي بالباقي.

جيبور : بكل سرور، يا سادة. والآن هيا أمامي ! تعاليا معي، وأقسم لكما أني سأدفع لكما أكثر من الكفاية. ادخلا هنا، ولن أتناول طعامي إلا بعد إرساله إليكما (نخبئهما، الآن أصبحت مسألتي في طريقها إلى الانتهاء. في وسعه الآن أن يحضر، فليس معي في البيت أي كائن حي، لأن زوجته في الخارج، أما هو، فلن يلبث أن يحضر، فليحدث ما يحدث، إني منتظرة هنا.

اللوحة الخامسة

أوبان : لن أبقى في هذا المكان أكثر من ذلك. فإن ساعة الإفطار قد اقتربت. سأذهب لكي آكل نصيبي من هذا الديك الذي رأيته يوضع في السفود منذ قليل. فمن الخير لي أن أكون هناك قبل الأوان لا بعد الأوان، هذا أحسن.

جيبور : يجب أن أدعي المرض : فإني أرى صهري قادما. سأجلس معلقة الرأس، مغمضة العينين.

أوبان : ماذا بك، يا سيدتي ؟ أسبغ الله عليك صحة الجسم والروح ! هيا ! ألست في حالة حسنة، يا سيدتي ؟ قولي لي.

جيبور : أعتقد أن جسمي كله يرتعد، وأني أعاني حمى شديدة. وقد استبد بي العطش حتى كاد يقتلني، يا صهري أوبان. فأرجوك أن

تأخذ إناء نبيذ، وأن تملأه من المخزن. أسرع حتى أبل غلتي.

أوبان : سأفعل بكل سرور، يا سيدتي، بالرغم من أن ذلك مضربك، ومع ذلك فسأحضره لك، ما دامت هذه رغبتك.

جيبور : عجل بالذهاب (يخرج) لقد انتهى الأمر : سأتخلص منه فورا. والآن يجب أن أفكر فيما يجب أن أفعل بعد ذلك.

الحصاد الأول : لا تقلقي نفسك بعد الآن يا سيدتي. لقد انتهى كل شئ.

جيبور : أقتلتماه، يا سادة ؟ بأي طريقة ؟

الحصاد الثاني : لم يكن لنا أن نختار في ذلك يا سيدتي : لقد ضغطنا على عنقه بصورة جعلتنا نتحقق من موته.

جيبور : هذا حسن، يا سادة، يكفيني ذلك، هيا بكل سرعة : يجب أن تحضراه هنا، وسننزع عنه ملابسه ونضعه في سريره وبعد ذلك سأعطيكما نقودكما، وأدعكما تذهبان إلى حيث يشاء الله.

الحصاد الثاني : إننا تحت أمرك : وسنفعل ما تريدين بكل سرعة.

الحصاد الأول : أرينا، يا سيدتي – دون إبطاء – أين تريدين أن نضعه، أرجوك أن تعجلي قبل أن يقدم علينا أحد.

جيبور : من أجل أن يتم كل شئ بسرعة، أرقداه على هذا السرير، أيها السادة، وكأنه ينام ليأخذ لنفسه قسطا من الراحة. حسن جدا. إنه هكذا كما كنت أريد. خذا، ولا تبطئا في الرحيل، حتى لا

يراكما أحد

الحصاد الثاني : لن يمكن الإمساك بي ما دمت على قدمي.

الحصاد الأول : ولا أنا، كوني واثقة من ذلك. وما دمنا قد حصلنا على النقود التي تنفقها، فلنرحل دون إبطاء، يا سيدي سلفستر (يخرجان)

غليوم : سيدتي، لقد جئنا مبكرين أكثر مما كنا نظن، أحضري الخبز والنبيذ والمفرش. أريد أن أنزع هذا المعطف الذي يشبه العباءة. إنه لا يصلح إلا للشتاء. لقد استبد بي الجوع، وأريد أن آكل، هيا. أحضري النبيذ بسرعة : وأنت يا ابنتي، اذهبي في هذه الأثناء لاستدعاء أوبان : وبعد ذلك سنتغدى سويا. وأظن أننا سنقوم بالحصاد غدا، وبعد فسأبدأ بالبحث عن بغض الرجال، ولذلك لا أريد أن أبقى وقتا طويلا، الآن على الأقل.

جيبور : ماري ! أوبان لا يزال في سريره.

غليوم : لقد تأخر في النوم. اذهبي لاستدعائه، اذهبي، يا مجنونة قولي له أن ينهض.

اللوحة السادسة

الإبنة : أوبان أوبان ! إذا كان ذلك لا يضايقك، استيقظ لتقول لي إذا كان النهار قد طلع أم لا. ألم تنم اليوم نوما كافيا، يا سيدي

العزيز ؟ ما هذا ! إنه لا يجيبني. سأقترب منه لأعرف ما إذا كان مستيقظا أم لا، ما إذا كان نائما حقيقة أم مستيقظا. (نكشف عنه الغطاء) هيا ! قم، يا سيدي، قم، دون إبطاء ! أتراك ستقضي النهار كله في النوم ؟ ما هذا ؟ آه يا أمي ! يا أمي ! هذا خبر في غاية السوء. لابد لي أن أئن، وأن أبكي بأعلى صوتي كمن يملؤها اليأس، لقد ضعت.

اللوحة السابعة

جيبور : ماذا يبكيك على هذا النحو المفجع ؟

الابنة : لا أستطيع إلا أن أبكي : فقد ولت لحظاتي الحلوة، وأيامي السعيدة، لقد مات أوبان. يا للحسرة ! يا للحسرة ! ماذا أفعل ! لا شك أني سأموت هما عليه، آه ! يا أوبان الحنون ! لقد انتهى قراننا أسوأ نهاية، وبأسرع وقت !

غليوم : إنه لألم قاس، ونكبة مروعة، كنت أفضل أن أفقد جميع ما أملك. أحقا، يا ابنتي، ما أسمعه منك ؟

الابنة : بل لقد أصبح لونه في صفار الشمع. ألا تصدقني يا أبي ؟ وا حسرتاه ! عروس دون عريس ! ها أنذى، بائسة مهجورة.

جيبور : آه، يا انتي العزيزة ! يا لها من خسارة ! لا شك أنه يجب على أن ألوي يدي، وأحث عيني على البكاء، ما دمت قد فقدت أوبان الحبيب الذي كان يحترمني، ويحبني من كل قلبه.

الابنة : وا أسفاه، يا أمي ! لم يكن يدعوني إلا بصديقته وأخته، لذلك يحق لي أن أشعر بالحزن في أعماق قلبي.

الجار الأول : كان الله في عونكم ! ماذا يجعلكم تصيحون على هذا النحو وتنتحبون ؟ أحدث لديكم ما يحملكم على هذا الحزن الشديد ؟

غليوم : نعم، يا روبير، يا جاري العزيز : لقد مات أوبان.

الجار الأول : أه ! رحمه الله رحمة واسعة ! اؤكد لك، يا جلري غليوم، أن هذا الخبر أحزنني. وأقسم لك بعذراء بونتواز أنني أود لو أستطيع فداءه. ومع ذلك دعني أسألك : ما فائدة كل هذا الحزن ؟ لا شئ، بكل تأكيد. نعم أنا أعرف جيدا أنه في هذه الحال يجب أن نترك الأمر للطبيعة، ولكنك تفعل خيرا إذا قللت من ألمك بعض الشئ.

الابنة : كيف يمكن ذلك ؟ إني أزعم، يا روبير، أن الله كان قد أعطاني أرق الرجال الذين رأتهم هذه الأرض، وأرجحهم عقلا، وأصدقهم حبا، وأحلاهم طبعا، وأوسعهم أفقا، لذلك ألا ترى من الطبيعي أن يستولي كل هذا الحزن على قلبي ؟

جيبور : نعم، هذا حق، ليست هناك امرأة في الإقليم كله قد لاقت ما لاقيت أنت من توفيق في الزواج، ولكن هذه هي الحال، لقد مات، فليتغمده الله برحمته !!

الجار الأول : أنصتوا ! إذا احتجتم إلي في أي أمر، فاطلبوه مني، ولا تتحرجوا، فسأفعله.

غليوم : إذن أرجوك، يا روبير، أن تحضر لي العشاء : وأوعدك بأني سأرد لك هذا الجميل نفسه في فرصة أخرى.

الجار الأول : سأعجل بإحضاره إليك، بأية طريقة.

اللوحة الثامنة

الجار الثاني : أسبغ الله عليك ثوب العافية، يا روبير، إلى أين أنت ذاهب؟

الجار الأول : أريد أن أحضر نعشا، يا صديقي جوتييه.

الجار الثاني : نعشا ! لمن ؟ أهذه مجرد فكرة ؟ قل لي، أيها الجار.

الجار الأول : كلا، يا جوتييه، إنه لأوبان، صهر العمدة.

الجار الثاني : أوبان ! رحمه الله ورفق بروحه !

الشرطي الأول : نزهك الله عن الملام، يا جوتييه، من الذي يقول إنه مات ؟ إني لم أسمع جيدا.

الشرطي الثاني : أوبان، ذلك الذي كان صهر غليوم، عمدة شيفي، لقد رأيته هذا الصباح سليما قويا.

الشرطي الأول : ليرفق الله بروحه. فلا شك أن هذه خسارة كبيرة، لأنه

كان شابا جميلا، حكيما، فصيحا.

الجار الأول : كلنا سنمر بهذا الطريق، وداعا، يا أصدقاء.

الشرطي الأول : وداعا يا جوتييه، أحسن الله يومك، وأسعد شهرك، أما أنا فسأذهب إلى الجلسة دون إبطاء، لأن الوقت قد حان.

اللوحة التاسعة

القاضي : من أين أقبلت، حفظك الله، هل جد أمر من الأمور لأحد الأشخاص ؟ ماذا يقال في المدينة ؟ أجب.

الشرطي الأول : يدهش كثير من الناس لموت أوبان، ذلك الشاب القوي الجميل، لقد حدث ذلك. منذ لحظه.

القاضي : ماذا نقول بحق ملك السماء ؟ أمات أوبان !

الشرطي الأول : هذا ما يقوله الجيران، ولا حديث للناس إلا ذلك.

القاضي : هذا يدهشني : وأراني أتساءل كيف يمكن أن يموت اجلس، اجلس. أعتقد أنه لابد أن يكون أحد ما قد جرحه لكي يموت على هذا النحو المفاجئ. ذلك ما لا شك فيه.

اللوحة العاشرة

الجار الأول : دعه على الأرض بكل رفق، يا صديقي، من فضلك، حتى لا يتلف، وأرجوكم، أيها الجيران، أن يقوم اثنان منكم بوضع

الجثمان فيه. على الظهر، على الظهر، يا أصدقائي المخلصين، لا على الوجه.

الحمال : لا تقلق، فإنه سيوضع خير وضع، يا سيدي، احمله من تلك الناحية، وسأحمله أنا من هذه. هيا ! ضعه.

الجار الأول : انتهى الأمر. ليلطف عيسى بروحه، ويترفق بها !

الحمال : من منكم سيدفع لي أجر النقل ؟

جيبور : أنا، يا صديقي، بكل ارتياح، ولن تحتاج إلى نقاش، صل من أجله. خذ. واذهب لعتلك، هاك ثلاثة من البيض.

الحمال : أنوسل إلى عيسى المسيح، الملك القادر، أن يمنح روحه الغفران الأيدي ! لو لم أكن أتقاضى أجرا أقل من ذلك على الأعمال التي أقوم بها، لرأيتني أرتدي ثوبا جديدا.

اللوحة الحادية عشرة

القاضي : إني أراك مهموما، يا جوبان، من أين أقبلت مخفوض الرآس هكذا ؟

الشرطي الثاني : الحقيقة، يا سيدي، أن قلبي مضطرب بشكل غريب، وإني لجد مذهول من ذلك.

القاضي : لا مفر لنا جميعا من الموت، سواء أردنا أم لم نرد.

الشرطي الثاني : أعرف ذلك جيدا، يا سيدي، ولكن الذي يدهشني أنه

منذ قليل، وبعد أن أصبح الوقت ضحى، كان يروح ويجئ في المدينة، ويتكلم مع هذا أو ذاك، وهو في أتم صحة.

الشرطي الأول : والله إنها لخسارة أي خسارة أن يكون الله قد أراد به ذلك.

القاضي : لا يستطيع أحد أن ينزع من رأسي فكرة أنه لم يمت على هذا النحو المفاجئ إلا لأنه ضرب أو خنق أو صرع، وأعتقد أني على حق. هيا بنا، فإني أريد أن اشترك في تشييع جنازته، لعلي أجد وسيلة لمعرفة الطريقة التي مات بها.

اللوحه الثانية عشرة

الإبنة : آه، يا أوبان الحنون ؟ كلما تذكرت وفاءك وحبك العظيم الذي كنت تغمرني به، وحسن طباعك، أثق من أني على حق حين أشكو وأنتحب من أجلك، لأني فقدت كل مباهجي، وغرقت في بحر من الألم. آه، أيها الموت ! ما أقساك حين فرضت علينا البعاد بعد هذا الزمن الوجيز ! خذني، أنا أيضا، التهمني ! خلصني من هذا العالم، فإني أفضل ذلك ألف مرة على أن أعيش في هذه الشدة.

القاضي : أسبغ الله سلامه ولطفه عليكم جميعا !

غليوم : وجزاك أيضا مثل ذلك، يا مولاي، بكرمه.

القاضي : الحقيقة أني في غاية الحزن، يا ماري، من أجل مصيبتك، ومن

أجل هذا الموت. وكم كنت أتمنى أن أحول دونه ! وأريد أن أسألكم : كيف اختطف من بينكم بهذه السرعة ؟ هل كان يشكو مرضا ؟

غليوم : اعلم، يا سيدي القاضي، أننا منذ أن زوجناه ابنتنا، لم نسمع منه – أو من غيره – أنه يشكو مرضا داخليا، لا من هنا ولا من أية ناحية.

القاضي : لذلك يدهشني أن يكون قد مات على هذا النحو. وأنت يا امرأة، ألا تعرفين شيئا عن طريق روحك ؟ ألم يكن في جمعية ما دبرت له هذا الشر ؟ أخبريني.

جيبور : كلا، يا سيدي القاضي، بشرفي، أنا أيضا جد مذهولة من موته بهذه الصورة المفاجئة.

القاضي : (للشرطيين) : تقدما، أنتما وحدكما، افتحا لي هذا النعش بسرعة، ومزقا كفنه بحيث أستطيع أن أراه من الرأس حتى الفخد، وذلك لكي أبعد عن نفسي كل شك، وسأواصل تحقيقي حتى نهايته قبل أن يتم دفنه.

الشرطي الأول : سنفعل ذلك بغاية السرعة، يا مولاي. هلم ! ولنرفع هذا الغطاء – يا جوبان – ثم لنمزق الكفن، ما دام ذلك ضروريا.

الشرطي الثاني : ماذا ؟ ! لننهض دون نقاش، سأفك هذه الخياطة، أتعد هذا كافيا، يا مولاي ؟

القاضي : اكشف لي كل وجهه جيدا، حتى أرى العنق والصدر. كفى ! اقبضوا على الأم والابنة والأب. ليس في وسعهم أن ينكروا الاغتيال : فهذا أمر واضح. انظروا كيف أصبح عنقه أسود اللون. لا شك أن شخصا قد خنقه. عجلوا بالتنفيذ دون ثرثرة ! اربطوا لكل منهما يديه متقاطعتين خلف ظهره، وسوقوهم كالكلاب في الزمام، ولن يهدأ لي بال حتى أعرف حقيقة هذا الأمر.

الأخ : أمدنا الله بعون من عنده ! وا أسفاه ! ما هذا ؟ أخي، ليس في مقدوري إلا أن أحزن لموتك، مهما تقول المتقولون.

ابن العم : أيها الموت الذي اختطفه، لعنة الله عليك ! لقد أختطفت أشجع أفراد أسرتنا وأعقلهم. وا أسفاه ! إنها لخسارة كبيرة أن يصل المرء إلى هذه الدرجة من التهذيب ليموت هكذا سريعا

القاضي : أيها السادة، هناك شئ أستطيع أن أؤكده لكم، إنه قد قتل، وهذا ما لا أشك فيه. أما أنتم، فإنه لن ينجو مني أحد منكم، وأقسم لكم على ذلك، وما دام الأمر على هذا النحو، فلابد من الوصول إلى الحقيقة.

غليوم : سيدي القاضي، أستحلفك بالله أن ترأف بحالنا ! لا تعاملنا بهذه القسوة، فإننا على استعداد لأن نذهب أو نبقى حيثما أمرت.

القاضي : لا جدوى لما تقول ! (للشرطيين) أيها السادة : افعلا ما

أمرتكما به.

الشرطي الأول : اعتبر الأمر منتهيا، يا مولاي. قم يا روبان بتقييد الأم ريثما أقوم أنا بتقييد الأب، وعجَل.

الشرطي الثاني : لست في حاجة إلى أن تقول لي ذلك أكثر من مرة واحدة. أقسم لك بروحي أني سأسارع ما استطعت. هيا ! ناوليني ذراعيك يا سيدتي بسرعة.

جيبور : وا أسفاه ! يا لتعاستي ! ما أشق هذا على نفسي، ولكني لا أستطيع له رفضا. هيا – يا سيدي – افعل بي ما تشاء.

الابنة : وا أسفاه ! يا لشقوتي ! يا لهذا الألم المر الذي يكاد يخنقني حين أرى أبي وأمي يعانيان هذه المعاملة من قبل العدالة التي تبدأ بتقييدهما وتكبيل أيديهما، وذلك كله بسبب موت زوجي الذي ينفطر قلبهما حزنا عليه.

القاضي : ستعاملين، أنت أيضا، هذه المعاملة، يا صديقتي الجليلة، وستذهبين معهما، دون إبطاء. كبلها، كبلها.

الشرطي الأول : سمعا وطاعة. هيا، يا صديقتي الجليلة، مدي لي يديك لكي أكبلهما. من العبث أن ترفضي، فهيا أسرعي.

الابنة : ها أنذى، وقد انقضت على جميع المصائب التي يمكن أن تصاب بها امرأة ! فهذا زوجي وقد اختطفه الموت، وهذا أبي وأمي وقد أحدق بهما خطر النفي، وأنا نفسي أراني مكبلة مقيدة

لكي أقاد كامرأة محكوم عليها الإعدام. آه، يا سيدة السماوات ! ألقي علي نظرة عطف من عينيك العذبتين.

القاضي. إلى الأمام، إلى الأمام ! لا تبطئوا. أيها السادة، قودوهم أمامي. إنه يتحتم عليهم – بمقتضى اليمين الذي أقسمته أمام الملك – إما أن يعترفوا لي بالحقيقة، وإما أن يخضعوا للاستجواب.

الشرطي الثاني : هيا، مدوا خطى السير، دون إبطاء.

القاضي : ادفنوا هذا الجثمان فورا.

ابن العم : من رأيي، يا ابن عمي، أن نوقف عرض التابوت فورا، وأن نحمله إلى المقبرة مباشرة، ثم نوصي بإقامة قداس مهيب له بعد الانتهاء من دفنه.

الابنة : حسن جدا. اعملوا على تنفيذ ذلك، أيها الناس الطيبون، من فضلكم.

غليوم : أيتها العذراء، يا أم ملك السماء الحبيب، يا ملجأ الحائرين ومأواهم، يا سيدتنا، امنحينا حمايتك، فإننا في حاجة إليها.

القاضي : أسرع، يا جوبان، وبعد الانتهاء مما أنت فيه، دع الأم في السجن، ثم سق الابنة أيضا إلى الفردوس من الناحية الأخرى، وفي هذه الأثناء سأقوم، أنا باستجواب غليوم.

الشرطي الثاني : سأفعل ذلك، يا سيدي ما دمت تأمر به.

جيبور : مولاي، مولاي، سرح هذين البريئين حرين مطهرين، واقتص مني أنا، فإني أسلم بذلك، لأن قلبي لم يعد يحتمل ما يقاسيان من آلام.

واعلم، يا مولاي، أنهما لا شأن لهما بهذه القضية. فأنا التي عملت على تنفيذ الجريمة، أنا وحدي.

القاضي : يجب أن تقولي لي، كيف ارتكبت هذا الاغتيال، كما لابد أن أعرف الدافع إليه.

جيور : سأعترف لك بالحقيقة كلها

....

القاضي : كفى وسقها، يا جوبان، إلى حيث أمرتك.

الشرطي الثاني : مولاي، سمعا وطاعة. من هنا يا سيدتي، منا هنا !

القاضي : مما لا شك فيه أنني لم أسمع – منذ زمن طويل – عن مثل هذا الاغتيال الدنئ، والآن أرد إليك حريتك كاملة يا غليوم، وكذلك أرد إلى ابنتك حريتها. فاخرجا، اذهبا من هنا بأسرع ما تستطيعان.

غليوم : مولاي، سننفذ أمرك، كما يجب أن يكون. أما أنت يا ابنتي، فاعلمي أنني لن أدخل بيتا من البيوت التي أملكها قبل أن أذهب إلى دير العذراء – في فينستير – لكي أصلي لها، وأطلب منها

أن تشمل أمك برعايتها، فإني أرى أن حياتها في خطر، هذا ما لا شك فيه.

الابنة : أتفعل ذلك ؟ وأنا أيضا سأذهب، مباشرة ودون إبطاء، إلى ليموج، وأقدم إلى القديس " ليونار " ما يعادل وزن جسمي من الشمع، لكي يتوسل إلى مخلصنا أن يحمي أمي، وأن يحفظها من موت قاس مهين.

غليوم : أرجو من تلك التي هي مليئة بالفضل أن تعطف عليها في كربتها ! ولابد لي، يا بنيتي، أن أباركك قبل الرحيل، وأستودعك الله، فلست أدري ما إذا كنت سأعود إلى هنا يوما من الأيام.

الأبنة : وداعا، يا أبي ! ولن يقر لي قرار قبل أن أحج إلى القديس ليونار، لأحمل إليه رجائي.

اللوحة الثالثة عشرة

الأخ : سيدي العزيز، لقد جئنا هنا طمعا في فضلك، لكي نطلب منك أن تقتص لصديقنا.

القاضي : أهو قد دفن أم لا يزال في القاعة حيث تركتكم معه ؟ إني أعرف الحقيقة حول هذه الجريمة، فماذا تقول ؟

الأخ : نعم، يا سيدي، لقد دفناه.

القاضي : عما قليل ستجد ما يرضيك. يا أوبري، اذهب وأحضر الجلاد،

وقل له أن يعجل بنصب المشنقة من أجل إعدام امرأة. وليأتني فورا بمجرد أن يتم كل شئ، وليكن ذلك بكل سرعة.

الشرطي الأول : سمعا وطاعة، يا سيدي. الحقيقة أني أرى أن هذا العمل لا يعني غيري.

اللوحة الرابعة عشرة

الشرطي الأول : هيا، يا كوشيه، أسرع ولا تضيع دقيقة واحدة. بأمر القاضي، سيدنا، اذهب سريعا، وانصب مشنقة في البيت العتيق المتهدم. أسرع دون إبطاء. وبمجرد أن تنتهي من عملك، اذهب إلى القاضي في الجلسة. هيا عجل.

الجلاد : لن يلبث كل ذلك أن يتم، يا صديقي. سأشرع فيه من فوري. أخبره أني سأذهب إليه دون تلكؤ.

الشرطي الأول : سأقول له ذلك، يا صديقي كوشيه.

اللوحة الخامسة عشرة

الشرطي الأول : مولاي، لقد كلمت كوشيه. ولديه المذراة، والعمود، والكلابة، والحبال، وكل ما يلزم، وبعد قليل سيأتي لرؤيتك بكل تأكيد.

القاضي : الآن، يا جوبان، أحضر لي جيبور هنا أمامي دون إبطاء. فإني أريد أن أعرف ما إذا كان لا يزال لديها شئ تريد أن تقوله لي.

الشرطي الثاني : فورا، يا مولاي، سأذهب. هيا اخرجي، يا جيبور، يجب عليك أن تمثلي فورا أمام القاضي.

جيبور : يا أم الإله الرقيقة، هل لك أن تتذكري تلك البائسة !! فإني لا أعتقد أني سأظل على قيد الحياة وقتا طويلا، لذلك أتوسل إليك، يا سيدتي الرقيقة، أن تشملي روحي برحمتك، وإن كنت آثمة. آه يا سيدتي ! أغيثيني بكرمك.

القاضي : جيبور، يا صديقتي، إني أعرف – من نص اعترافك – أنك أنت التي قتلت صهرك، وسببت له الضياع. هكذا قد عرضت على القضية، وبرأت زوجك وابنتك، وحملت الإثم كله على كاهلك.

جيبور : هذه هي الحقيقة، يا مولاي، أقسم لك على ذلك، وقد أخبرتك ببواعث هذا الفعل، وحدثتك عن كيفية ارتكابه وها أنذى أرى أنكم أتيتم بي هنا للعقاب، فليسبغ الله رحمته على روحي، وليتكرم برفعها إليه، وليحفظها ويجنبها الجحيم التي لا شئ فيها غير العذاب.

الأخ : سيدي العزيز، أطلب منك أن تقتص لي فورا من هذه القاتلة الشنيعة التي اغتالت أخي غدرا. أرجو أن تتكرم بإحقاق حقي في هذه اللحظة دون إبطاء.

ابن العم : سيدي، لا شك أن طلبه طلب عادل، فما دامت قد اعترفت

بالحادث، فقد أصبح من حقه أن تجيب مطالبه.

الجلاد : مولاي، لقد أصبح كل شئ معدا، كما أمرتني، فإذا كنت تريد شيئا آخر، فما عليك إلا أن تصدر إلى أمرك.

القاضي : خذ حبلا ولفه حول عنق هذه المرأة، فقد استحقت الموت المهين، كبل أيضا يديها، وبعد ذلك سنغادر هذا المكان إلى مكان التنفيذ.

الجلاد : سأقوم بواجب مهنتي، ما دمت قد أمرتني بذلك.

جيبور : وا أسفاه ! إليك يا سيدتنا التي أهلتك فضائلك العظيمة القيمة لدى الله لأن تكون لك السيادة على جميع الأرواح المجيدة التي تسكن الفردوس، وتستطيع البقاء فيه أبد الآبدين. إليك، يا مريم العذراء، أتوجه راجية أن تعينيني في محنتي، وأن تسبغي رعايتك على روحي، لأني أرى جيدا – ودون ارتياب – أن جسمي لن يلبث أن يموت أشنع ميتة.

الأخ : ليس في وسع إنسان أن يبلغ حد الكفاية في أن يوجه إليك الاتهام والازدراء، أنت أيتها القاتلة التي اغتالت أخي بتلك الصورة الشنيعة.

القاضي : سأجعلها تدفع ثمن جريمتها. اذهب، يا أوبري، من فورك إلى الميدان العام، وناد بأنه يجب ألا يتغيب رب أسرة عن الحضور إلى ساحة الإعدام، ثم ارجع بعد ذلك.

الشرطي الأول : سأفعل ذلك، يا مولاي.

اللوحة السادسة عشرة

الشرطي الأول : أنصتوا جميعا : إليكم –مجتمعين ومنفردين – أوجه الأمر بأن تذهبوا سريعا لشهود الإعدام الذي سينفذه السيد القاضي، وذلك لكي تروا جزاء من يجرم في حق الملك.

الجار الأول : أنا، والله، أفضل الذهاب على دفع الغرامة.

الجار الثاني : وأنا أيضا سأذهب للسبب نفسه.

القاضي : قفا ! أصبح عدد أفراد الموكب كافيا، ولابد أنه سيأتي عدد كاف من الأشخاص. سيرا أمامي، أنت وهي، يجب الانتهاء من هذه القضية، يا كوشيه، فإن البطء في مثل هذه المسائل لا يفيد. هيا، هيا.

الجلاد : إلى الأمام، يجب أن تجمعي أمرك على اتباعي، يا سيدتي، وليس لك أن تسألي : ما هذا ؟ فسأقودك في طرف هذا الحبل، كما يجر الكلب من مقوده.

جيبور : آه، يا إلهي ! لماذا لا يتوقف قلبي عن الخفقان، ولماذا لا ينفجر، حتى أموت قبل أن أتجرع المزيد من عار الكارثة التي أراني غارقة فيها ؟ سيدي القاضي، تكرم على بهذه المنحة من فضلك، اسمح لي بالتوقف هنا بعض الوقت لكي أصلي لسيدة الفضل، ما دمت أمر أمام كنيستها. أني أتقدم إليك بهذا الرجاء.

الرجاء الأول : أجبها، يا سيدي العزيز، إلى هذا الطلب ابتغاء مرضاة الله، دون أن تسمح لها بدخول المكان المقدس، فهذا عمل صالح.

الجار الثاني : لا شك في ذلك، يا سيدي. فإني أعتقد أنها ستموت أطيب نفسا، إذا منحتها هذه اللحظات القصيرة، وقد أمرنا الكتاب المقدس بأن نود الخلاص لكل مخلوق.

القاضي : عجلي، إذن، أيتها المرأة، فإني قد سمحت لك بذلك، ما دام الجميع يرجونني أن أسمح به. هنا، اركعي على ركبتيك.

جيبور : سمعا وطاعة، يا سيدي العزيز الكريم – آه، يا سيدة الرحمة ! اشفعي لروحي لدى الرب، ابنك الحبيب. أنت، يا من تعتذرين للخطاة، وتمجدين أتباعك في السماء. ارأفي بيأسي. سيدتنا، يا أم خالق الكون الرءوم، ارحمي بلطفك تلك التعسة التي تفيض نفسها بالأحزان والآلام، لأني في أشد الحاجة إلى عونك. أنقذي روحي ساعدي روحي، لأن جسمي لن يلبث أن يهلك حرقا وشيا في النار. لذلك أتهم نفسي أمامك بأني آثمة بائسة، وأعترف لك بجميع الخطايا التي اقترفتها في حق ابنك، بالفكر، أو باللفظ، أو بالفعل. يا سيدتنا ! اطلبي لي العفو من الله ؟ فإنه هو وحده الذي في مقدوره أن يمنحني إياه، وهو الذي يرى توبة القلوب بكل وضوح.

القاضي : إلى الأمام، إلى الأمام ! قفوا ! هيا بنا لقد توقفت هناك أكثر مما ينبغي، فليس لدي من الوقت ما أضيعه، وقد انقضى الجزء

الأكبر من النهار. أسرعي، يا جيبور، سيرى، سيرى. عجل باقتيادها يا كوشيه. لابد من شئ جسمها في نار حامية.

جيبور : آه، أيتها العذراء، أيها الحجر النفيس ! إني أخاف – خوفي من الصاعقة – هذا القاضي الذي يتحرش بي، ويتميز ضدي من الغيظ. أيتها العذراء الطاهرة دون غبار، يا ملكة العالم بأسره، يا عاهلة السماء وسيدتها، اجعلي عذاب هذه النار، وذلك الموت الشنيع المهين سدا منيعا بيني وبين عذاب الجحيم، أنت يا ملكة السماء المجيدة. احفظي روحي كما لو كانت متاعا لك، فإني أهبك إياها.

الجلاد : ما دام لابد لي من الانتهاء معك يا سيدتي، فإنه يتحتم عليك أن تجثي هنا على ركبتيك، نعم، هكذا وسأربطك من جنابيك – بهذا العمود، ثم اصنع عقدة حول عنقك وصدرك، وأشدها دون توقف.

جيبور : أتوسل إليكم – يا من تنظرون إلى وجها لوجه – أن تدعوا سيدتنا من أجلي. ها هم أولاء سيحرقون جسمي بالنار واللهب، فليكن في مقدور روحي أن تتجنب نار الجحيم، وألا تعاني لمساتها، أرجوكم، أيها الناس الطيبون، ألا يكون في هذا الموت المخزي ما يؤخذ على زوجي الذي لا شأن له به، وكذلك الحال بالنسبة لابنتي، فإني أعتقد اعتقادا جازما أن موتي سيقض مضجعهما ويغمهما، ويغرقهما في الأحزان، وأنهما يشاطراني

آلامي دون أن يستطيعا ردا لها ولا فرارا منها

القاضي : فكر في الإسراع، يا كوشيه. إنها الآن مكتوفة بحبال شديدة، فضع حولها قطع الخشب والقش من جميع الجوانب، ثم أشعل فيها النار دون لف أو دوران.

الجلاد : لن أذوق الطعام أو الشراب قبل أن يتم ذلك. انظر، يا سيدي، لا أظن أنه كان يمكن أن نفعل خيرا مما فعلنا، فها هي ذي قطع الخشب تحيط بها من كل جانب، كما لو كانت في وسط معجنة.

ولذلك لن تلبث النار أن تلتهمها.

القاضي : إلى النار، إلى النار دون انتظار ! إلى النار بكل سرعة !

الجلاد : فورا، يا سيدي. سأحضرها، فقد أصبح كل شئ الآن على تمام الاستعداد.

اللوحة السابعة عشرة

الرمز : أمي، أي، أمي، هذه هي الساعة : حانت اللحظة التي يجب أن تنزلي فيها، وتدافعي عن جيبور وتنقذيها، جيبور التي تناديك بكل ضراعة، وتتوسل إلي برحمتك أن تغفري لها جريمتها. هيا، أنقذيها، ولتعجز النار التي تضطرم من حولها عن إصابة جسمها بالألم أو الضرر، ولتقصر عن سلبه صفة الحياة.

سيدتنا العذراء : أي بني، إني على استعداد للذهاب، انهض، يا جبرائيل، وانزل أنت أيضا يا ميكائيل، وترنما بالنشيد على طول الطريق

جبرائيل : سيدتي العذراء، سيتم كل شئ على ما ترغبين أن يكون. إلى الأمام يا ميكائيل، ولنترنم بالنشيد – يا صديقي – ما دمنا قد انخرطنا في الطريق، لنترنم بألحان عذبة.

حلقة

أيها الرب القادر الرحيم،

إن رحتمك الواسعة

تجعل الخطاة يثوبون

إليك، وإنه لالتجاء عذب،

أيها الرب القادر الرحيم،

والحقيقة أن تدخل

لطفك – الذي لا تنساه الأذهان –

ينتزع قلوبا كثيرة من غوايه الشيطان.

أيها الرب القادر الرحيم،

أن رحمتك الواسعة

تجعل الخطاة يثوبون.

الجلاد : سأضرمها نارا حامية كثيرة الوقود إلى حد أن تحمل من حولها على الانسحاب بعيدا عنها.

السيدة العذراء : اطردوا – يا أصدقائي – هذه النار عن صديقتي الوفية، حتى لا تصيبها بالضرر. ليشتد قلبك، يا جيبور. وتأكدي أن هذه النار لن تلحق بك ألما أو عذابا، ما دمت قد دعوتني بكل هذا الورع.

جيبور : سيدتي، ما من لك الحظوة والامتياز على قديسي الفردوس جميعا، يا من لك الحق في أن تمتدحي بالفم والصوت والكلام، إذا كان قد طاب لك أن تبعدي هذا الموت القاسي عني، أنا التعسة ! أنا الضعيفة، فكيف يتأتى لي أن أرد لك هذا الصنيع، يا مريم العذراء ؟

القاضي : أعتقد اعتقادا جازما أن تلك المرأة ستحترق، فإن هذه النار قد قذفت بشرر عال شديد الحمرة.

الأخ : لقد كان الوقود جافا يا مولاي، وإذا أمسكت بها النار، فلتحترق : فلن يعتريني لموتها أسف أو غضب.

الجلاد : مولاي، إني أرى الأغلال والحبل والأحزمة وقد اضطرم لونها، لم يبق شئ إلا أحرقته النار، ولكنها هي لا تزال سليمة، لم يصبها جرح، ولم تسل منها قطرة دم. بل إنها – على العكس

من ذلك – لا تزداد إلا جمالا.

الأخ : أقسم بالحشا والدم، أيتها القاتلة، أنك لن تنجي هكذا، بل ستحترقين من فورك، نعم، لن تفري من الموت بهذه السهولة. هيا، أسرع يا ابن عمي، ولنذهب لإحضار الكثير من القش والخشب والأوراق والقشور الجافة، لكيلا تنجو من الموت بعد هذه الضربة.

ابن العم : أنا لا أطلب خيرا من ذلك، فهيا يا ابن العم.

الأخ : أيها القاضي، لما كنا نريد أن تحترق هذه القاتلة بكل سرعة، وأن يتناثر لحمها رمادا، فقد أتينا بما ينبغي لذلك.

القاضي : ألقيا فوقها بكل ما معكما، لقد أذنت لكما بذلك، حتى تشتغل فيها النار، وحتى لا يبقى منها شئ، لا لحم ولا عظم.

السيدة العذراء : أيتها النار، إني أنهاك، وأحرم عليك أن تمسي هذه المرأة، أو أن تصيبيها بضرر. تشجعي، يا صديقتي الجليلة، وهيا بنا، أيها السادة – أنتم وأنا – نصعد إلى السماوات.

ميكائيل : سنسير تبعا لرغبتك – يا سيدتي – انهض، يا جبرائيل، ولنترنم بأصوات مؤتلفة.

حلقة

والحقيقة أن تدخل

لطفك الذي لا تنساه الأذهان

ينتزع قلوبا كثيرة من غواية الشيطان.

أيها الرب القادر الرحيم،

إن رحمتك الواسعة

تجعل الخطاة يثوبون

(العذراء والملكان ينسحبون)

جيبور : أيها السادة، باسم الشفقة، أرجوكم بكل خضوع، أتوسل إليكم، أن تقوموا بعمل طيب، أنقذوني، تفعلوا خيرا، وكوني على ثقة بأني لا أحس شيئا مما يفعل بي : إني في حماية كرم الرب.

تخجلوا من هزيمتكم، لأن درعي هو السيدة العذراء التي هي ملكة السماوات وسيدتها، وكذلك الرب الذي صار كفيلي معها.

القاضي : أيها السادة، أيها السادة، لا شك أن هذه معجزة، وعجيبة كبرى لم يسبق لي قط أن رأيت لها مثيلا. إننا قد ارتكبنا خطيئة شنيعة ضد الرب بتعذيبنا هذا الجسم المقدس ذلك العذاب القاسي.

جيبور أيتها الصديقة العزيزة، اخرجي من النار. أقسم بروحي، وأعترف بأنك قديسة، فلا تخشى شيئا.

جيبور : مولاي، سأفعل ما تأمرني به، سأفعله عن طيب خاطر ودون مناقشة. ها أنذى خارج النار، فماذا تود مني أن أعمل ؟

القاضي : سيدتي، ها أنذا أجثو على ركبتي، وأطبق يدي على صدري، وأطلب منك أن تغفري لي الحنق والغضب اللذين أثاراني ضدك، وأن تتجاوزي عن الأذى الذي سببته لك.

جيبور : أستحلفك الله أن تنهض. فإني لا أطلب منك أن تذل نفسك على هذا النحو، لأنك – في الحقيقة – لم تذنب في حقي بشئ، فإن جريمتي عظيمة إلى حد يجعلني أهلا للإحراق مائة مرة، لو كان ذلك في الإمكان، ولكن لطف السيدة العذراء التي دعوتها من قلبي وروحي، قد حماني وأنقذني، فإذا كنت قد أهنتني فلتغفر لك أم الإله ما صدر منك، ولتهبنا جميعا ميتة كريمة، آمين.

الجار الأول : لا يصح أن نبقى هنا بعد الآن، فلننطلق معها جميعا في موكب إلى الكنيسة، لكي تشكر الرب وأمه اللذين أحسنا حمياتها.

الجار الثاني : هذه فكرة طيبة، ويجب علينا تنفيذها.

القاضي : صديقتي العزيزة الطيبة، إنهم يقولون حقا، فسيرى أمامنا، وسنقتفي جميعا أثر خطاك.

جيبور : ليكن، يا مولاي، ما دام ذلك يروقكم جميعا، وقد فكرت في

ذلك، أنا الأخرى.

الحل

الرمز : ألا هيا جميعا، هيا : فلننطلق.

في يوم قرباني هذا

وددت أن أسبغ الرضا على جيبور

من أجل القداس الذي قدمته لي،

استدرارا لعطفي.

أنتما، أيها الملكان، سيرا في الأمام،

وأنت يا أمي أتبعيهما،

ونحن جميعا سنسير من خلفك.

أيها الملائكة، اعملوا – وأنتم تسيرون – على أن تترنموا بنشيد جميل.

ميكائيل : سنفعل ذلك، يا مولانا، عن طيب خاطر،

ومن أعماق قلوبنا لأسباب عديدة.

جبرائيل، يا زميلي العزيز، لنترنم

معا ببهجة ودون غضب.

حلقة

أيها البشر، ينبغي أن يكفيكم

أن تكونوا محبوبين إلى هذا الحد من الرب

الذي مات شهيدا من أجلكم،

أيها البشر : ينبغي أن يكفيكم،

وكذلك حين يقول لكم على ألسنتنا

أحبوه أنتم أيضا بكل قلوبكم

أيها البشر : ينبغي أن يكفيكم

أن تكونوا محبوبين من الرب إلى هذا الحد.

حنان : أنت، يا ملكة ملكوت الله،

إذا طاب لك، فقدمي هذه الشمعة

واعملي بالمثل في هاتين أيضا.

سيدتي، سأذهب من هذا الطريق.

أنت يا صديقي منصور، خذ هذه،

وخذ هذه الشمعة يا لوران،

لكي تقدمها أنت أيضا

بعد إنشاد القداس.

وخذي، أيتها المرأة، وبحسن نية

وخشوع عظيم لا يشوبه الاعوجاج،

احمدي الله على هذه النغمة.

جبرائيل : هيا ! لنبدأ، بصوت عال،

مقدمة القداس دون تخلف.

لننشد قداس الاعتراف.

فهيا، يا ميكائيل، هيا !

(وهنا ينشدون جميعا، ثم تذهب السيدة العذراء للقربان، والآخرون من خلفها، وبعد ذلك تقول السيدة العذراء)

السيدة العذراء : اذهب، يا ميكائيل، وقل لهذه المرأة

أن توجه لنفسها أشد اللوم

على أن جعلت القس ينتظر كل هذا الوقت،

وأن تأتي دون أبطاء

لتقدم شمعتها.

ميكائيل : سمعا وطاعة، أيتها العذراء المجيدة.

أيتها السيدة، تعالي دون أبطاء،

إلى القربان، فقد طال

انتظار القس : هيا، قدمي،

إنه من سوء التصرف أن تجعليه

ينتظر هكذا...

جيبور : أيها الصديق، اعلم أن هذه الشمعة

لن أقدمها إلى أحد آخر،

بل سأحتفظ بها وديعة غالية،

فليستمر القس، وليعمل

على أن يتمم قداسه

دون انتظار..

ميكائيل : سأبلغ هذا الجواب.

أيتها العذراء المجيدة مريم :

لقد أخبرتني أنها لن تأتي مطلقا،

وعلى القس أن يستمر في صلواته

وأن يتمم قداسه

دون انتظار...

السيدة العذرء : جبرائيل، هيا، اذهب إليها فورا.

وقل لها إنه لابد من المجئ

وأن لابد من تقدي قربان

الشمعة في هذا اليوم.

جبرائيل : سيدتي، سأذهب دون إبطاء

لتبليغ ذلك. أيتها المرأة : سلمي نفسك

فورا، هذا أمر السيدة العذراء.

أحضري الشمعة للقربان،

إنك تعملين عملا غير حميد

حين تجعلين القس ينتظر إلي هذا الحد.

فهيا، سارعي بالانطلاق

وتعالي قدمي...

جيبور : في وسعه أن يستغني عن حضوري.

ليقل قداسه، فخلاصة القول

أني لا أفكر في الذهاب إليه

ولن أذهب إليه...

جبرائيل : سأقول هذا لسيدتي،

وأنك لا تريدين المجئ.

سيدتي، إنها تريد الاحتفاظ

بشمعتها، وقد قالت لي في هذه اللحظة :

إنها لن تقدمها بكل تأكيد :

هذا كل ما في الأمر...

السيدة العذراء : اذهب إليها مرة أخرى من فورك

وقل لها ألا تتباطأ

في المجئ، وأن تقدم الشمعة فورا،

وإذا أصرت على العكس

فانزع الشمعة بالقوة

من بين يديها...

جبرائيل : سيدتي، لن يجدي معها غير ذلك.

أعود إليك، أيتها الصديقة الجليلة،

تعالي قدمي، ولا تتباطئ،

وإلا نفذت ما كلفت بتنفيذه

وانتزعت من بين يديك

هذه الشمعة بالفعل...

جيبور : لن يتأتى لك من القوة،

أيها الصديق، ما يمكنك من نزعها من يدي

وإني أنهاك، وأحرم عليك

أن تمسها...

جبرائيل : ما دمت سأمسك بها من وسطها

فسأكون المسيطر عليها،

جيبور : سأركز في ذلك كل قوتي،

ومن ثم ستبقى لي بكل تأكيد،

إنما لن تفلت من يدي،

وكل جذب من قبلك سيكون عبثا.

جبرائيل : لن تلبثي أن تقولي غير ذلك

فسأنتزع هذا الجزء من يدك.

وأنت، يا سيدة السماء، إني أقول لك :

هذا كل ما استطعت الحصول عليه،

إذا كنت قد بذلت ما في جهدي

لانتزاعها...

الرمز :- إلى الأمام : فإنه لا يجوز الشك

في أن ما لديها منها حق لها

ستحتفظ به كأعز ما لديها

وبكل حرص وتفان.

هيا، ولنكمل موكبنا

بالذهاب إلى السماء،

وأنشدا، أيها الملكان، فهذا خير

ما أرى في ذلك الأمر.

ميكائيل : أيها الإله الحق، سنفعل ذلك بكل بهجة،

ودون أن نخالف لك أمرا.

حلقه :- وكذلك حين يقول لكم - بألسنتنا - :

أحبوه أنتم أيضا من كل قلوبكم،

أيها البشر ينبغي أن يكفيكم

أن تكونوا محبوبين من الرب إلى هذا الحد.

جيبور :- أيتها العذراء، على فضلك العظيم

أشكرك. يا إلهي ! أين كنت ؟

يبدو لي يقينا

أني كنت في كنيسة كبيرة.

حيث رأيتك في صورة ملكة

ومن حولك القديسون من كل جانب،

وهناك أنشد ابنك القداس

الذي كان يردده القديس منصور شماسه

والقديس لوران مساعد شماسه.

وبدا لي أنه كان هناك قديس

ناول كلا منا شمعة،

وقد بدأ بك أولا

وانتهى بي أخيرا،

وذلك قبل بداية القداس،

وبعد ذلك، حينما تم القداس

بصوت عال، وجاء دور القربان،

بدأت أنت بالتقديم

ثم تتابع الجميع من بعدك.

وعندئذ جاءني ملاكك مصرا – كل الإصرار –

علي أن أقدم الشمعة التي معي
والتي كنت أريد الاحتفاظ بها كاملة،
ولكني لما لم أرد ذلك،
أنتزع مني نصفها
وذهب به مستعينا بقوته.
ولكن الذي يعزيني، يا سيدتي،
أنه حين قصفها مني وذهب،
بقى لي منها جزؤها الأكبر،
وإني لأعترف لك، يا مريم العذراء،
بأني كنت في حالة تجل،
هذا الذي أشكرك عليه بكل خشوع،
والحمد لعيسى الذي لم ينسني :
لقد شاء عطفه الجميل
أن يسمعني اليوم قداسا

الراهبة الأولى :– ينبغي لقلبك – يا جيبور –

أن يركن إلى الله بلا تردد،

لأننا نؤكد لك

أنه أرسلنا إليك – نحن الاثنتان –

لنقول لك أن تعدي العدة

لكي تأتي دون إبطاء

فتدخلي ديرنا

وتلبسي لباسنا.

الراهبة الثانية : يريد منك أن تتركي غرور

هذا العالم لكي تتفرغي لخدمته

وأيضا لكي تكوني أهلا

للمجد العظيم في السماء.

جيبور : سأقول لكما قول صدق :

لا شك أن هذه كانت أمنيتي.

فهيا بنا إلى رضاء الرب،

ما دام عليكما أن تصحباني إليه،
إني على تمام الاستعداد
للذهاب معكما.
الراهبة الأولى : إذن هيا، ولكن نصيحتي
أن نتابع النشيد جميعا ونحن سائرات،
فنمتدح ملك الملوك الحنون
وأمه التي تخلو من كل شائبة.
من حقك علينا، أيتها العذراء، أن نمتدحك،
فمن أجل تخليصنا من الجحيم
قد استحال الإله بشرا بين أحشائك،
ونجانا من الموت
الذي جلبه علينا آدم،
حين قضم التفاحة.

سر الآلام لأرفوجريباق

حصل "أرنوجريبان" على إجازة الجامعة، ثم على إجازة العلوم اللاهوتية، وصار عازف الأرغن، ومدير الترتيل في كنيسة " نتردام باريس"، ثم قسا لكنيسة القديس جوليان المنسي، وقد قام حوال سنة ١٤٥٠ بتأليف (سر الآلام) من أجل (الجمعية الدرامية الباريسية لإخوان الآلام). وهذا الأثر الضخم – الذي يعد في نفس الوقت عملا دراميا وغنائيا واقعيا، بل وهزليا في بعض مناظره – يحتوي على ٣٤٥٧٤ بيتا و ٧٢٤ شخصية، وينقسم إلى مقدمة وأربعة أيام (أو أربع مراحل)، وهي :

الخلاص، وحياة عيسى، والآلام، والبعث. ويستحق أرنوجريبان أن يعد بين أعظم المؤلفين الدراميين في الأدب الفرنسي.

المقدمة

تبدأ المخطوطة بمائتين وأربعين وثمانية أبيات يلقيها الممثل، وفيها نرى عرضا لخطة الخلاص العامة، ومقاصد الشاعر، وملخصا لليوم الأول وبعد ذلك تحتوي (في الأبيات من ٢٤٩ – ١٧١٧) على " مختصر لقصة الخلق " مع تاريخ البشرية حتى موت آبائنا الأولين. وهذا الجزء من السر الذي لم يمثل في العروض الثلاثة الأولى التي تمت في باريس قبل سنة ١٤٥٦ – كما تشير الملاحظات التمهيدية – يذكرنا بتمثيلية

آدم، وبعد ذلك يعود الممثل ليعرض على الجمهور – في سرعة – مضمون الأيام الأربعة (الأبيات ١٧١٨ – ١٧٤).

اليوم الأول

آدم وحواء وأشعيا وحزقيال وإرميا وداود ينوحون في الأعراف، ويرجون بكل أمانيهم ظهور المسيح (الأبيات ١٧٤١ – ٢٠٧١)

وتناقش قضيتهم أمام الله في الفردوس بين شخصيات (الرحمة) و (العدالة) و (الحقيقة) و (السلام) و (الحكمة). ويتبين أنه لا يستطيع أن يرضي العدالة ويصلح خطأ الإنسان إلا ابن الإله بعد أن يتجسد، وينزل جبرائيل – وسط نشيد الملائكة – إلى العذراء المختارة ليحمل إليها الرسالة الإلهية (٢٠٧٢ – ٣٣٩٤).

بعد ذلك نرى مشهد البشري (٣٣٩٥ – ٣٦٠٤)، ومشهد الزيارة (٣٦٠٥ – ٣٦٤٤). ويحيط جبرائيل الإله علما بشأن رسالته، وتتغنى الملائكة بطيبة الإله ومجد العذراء (٣٦٤٥ – ٣٧٠٤). وتضج الشياطين في الجحيم، وتقسم على ألا تدع أسراها يخرجون من قبضتها، ويقوم إبليس بإرسال الشيطان إلى الأرض لكي يخبره بما يجري على سطحها (٣٧٠٥ – ٣٩٧٨).

مؤتمر الشياطين

إبليس : اقفزوا من الأعماق السوداء،
من المساكن الجهنمية المظلمة،
وأنتم تنفثون النار والكبريت،
أيها الشياطين. اقفزوا من هوتكم
واخرجوا من مناطقكم :
آلافا، وجيوشا
تعالوا اسمعوا قضيتي.
دعوا السلاسل والمشانق،
وقد علق عليها المشانيق واللصوص،
دعوا الأفران الحامية، والأفاعي اللداغة،
والتنانين التي تفوق العاصفة في ضراوتها،
كفوا عن كد أذهانكم ورؤسكم
في إذابة تلك المعادن،
انسقوا لي، هدموا لي
كل ذلك الرواق الجهنمي القبيح،
وسارعوا إلي – بكل قوة –

لتسمعوا حديثي.

الشيطان : من الذي يثير هذه الضجة ؟

إبليس، ملك الشياطين،

إنك تعوي كالذئب الجائع،

حينما تريد الغناء أو الضحك.

إبليس : ها ! لعنة الله عليك، أيها الشيطان !

أما عن ترانيمي وضحكاتي،

فإنها كئيبة قبيحة،

وأما عن عزتي وجمالي،

فقد أصبحا ضربا من التشويه،

كما أصبح غنائي نحيبا،

وضحكي غموما،

نوري ظلمة حالكة،

لقد تحول مجدي إلى غيظ أليم،

وفرحي إلى ترح لا شفاء منه،

لم يبق لي إلا كبريائي

التي لم تحل، ولم تتغير

منذ اليوم الذي خلقت فيه

هناك في علَيين، في مملكة السماء الخالدة،

دون أن يعتريها أي نقصان.

الشيطان : أما من هذه الناحية، فإني أصدقك جيدا،

فلا تنتظر أن يكون لك منها خلاص،

ولكن ليست هناك مناسبة لذلك،

إلا إذا كان المراد مجرد التكرار.

إبليس. دقي الناقوس، يا عشتروت،

انفخي في الصور – بكل قواك –

حتى يخرج شياطين الداخل جميعا

إلى الخارج فورا وفي الحال....

عشتروت : إبليس، أيها الملك، خبَرنا

عن حال دولتك،

ها هم أولئك الشياطين الملعونون

وقد اصطفوا جميعا ليسمعوا صوتك.

إبليس : أني لأشعر بالبهجة حين أراهم

مجتمعين في رهط له هذا الجمال،

ولكنها بهجة ضئيلة القيمة.

بهجة أفسدتها شدة الغضب،

وأختلطت بالسخط المختزن
الذي لا تكاد تطيقه الروح...
قبل أن يتقدم سير الأمور
بحيث يتم البت فيها بدونكم،
أيها الشياطين، اصطفوا – كلكم جميعا –
في صورة جمهور هائل،
وغنوا لي دورا
بلغتكم الشيطانية المروعة.
عشتروت : ستمتع غناء جميلا،
على الفور، ومقطوعة شائقة :
أيها الشيطان، ستؤدي أنت النغمة القيادية،
وسأقوم أنا، بأداء النغمة المنخفضة،
وسيؤدي " بلزيبوث " أعلى النغمات،
وسيكون " بيريخ " معه مثنى،
وسيقوم " سربروس " مقام ثانثهما
الذي لا ينقطع، والله يعلم كيف.
إبليس : هيا ابدأوا وبطلف
ألابد من كل هذا التكلف ؟

ابدأوا يا شياطيني الصغار،

غردوا أنغامكم، ورنموها،

همهموا كاليرابيع النائمة

أو كالغربان الهرمة الساغبة.

بيريخ : ستسمع قصائد جيدة التقفية،

وغناء مديدا أيضا،

هيا، يا بلزيبوث.

بلزيبوث : هيا !

سربروس : هيا !

أعتقد أنك ستسمع جمالا.

(غناء جماعي.)

الموت القاسي الخالد،

إنه أنشودة الملعونين،

إنه يمسكنا جيدا في سلسلته

الموت القاسي الخالد،

لقد أستحققناه هكذا

ونحن إليه منساقون،

الموت القاسي الخالد،

إنه أنشودة الملعونين،

إبليس : كفى ! إنكم تصدعون مسامعي، أيها الأشقياء

بهذا الصياح المزعج،

كفوا كفوا، وحق الشيطان،

إن غناءكم كله نشاز.

" تعود مريم من لدى إليصابات، وتنقضي ثلاثة أشهر، فيبدو حملها وضحا ويعبر يوسف عن قلقه في حديث انفرادي ذي طابع كلاسيكي بحث (٣٩٧٩ - ٤١٩٦) ".

قلق يوسف

إن ذهني القلق لا يستطيع أن يحيد عن مريم، زوجي القديسة التي وجدتها حبلي. لست أدري إذا كان في الأمر شر أم لا. أيتها السيدة ذات الشهرة العالية، أيتها العذراء المزدانة بالفضيلة، مريم، أيتها العاقلة جدا، يا أحكم النساء وأشدهن تواضعا، إنك تغرقين قلبي في الشك. لا أدري ماذا أستنبط مما فعلت ؟! لا أدري ماذا أقول أنا ذلك الرجل المسكين ؟! ما دامت قد حملت، فلابد أن يكون حقا أنت أثمت، لأنه ليس مني : إنها لم تحفظ عهدها، لقد فسخت الزواج. فسخت ؟ ماذا تقول، أيها القلب الجامد ؟ إنك تلوث كائنا بلغ هذه الدرجة من القداسة. أيها الفم، حاذر مما تقول ! أتمس شرف أعذب عذراء تعيش تحت قبة السماء، أوفر العذاري حكمة، وأجملهن خلقا، تلك التي لم

تصدر من فمها الجميل كلمة لغو واحدة ؟ أتتهم هذا المحيا العذب الحكيم بالخطيئة ؟ إنك لكاذب، فهذا أمر مستحيل. كاذب ؟ ما أشد غبائي حين أنظر إلى حالتها، فأعتقد أنه ليس في الأمر من خطيئة ! إنها حبلي، وممن ؟ إن القانون يقرر أن هناك جة يمرزبي، مادام الوالد ليس شخصي يا إلهي ! ما أفظع الأمر ! هل أصدقه ؟ كلا، إني لكاذب... لست أدري. ولقد تغيبت عن هذا المكان ثلاثة أشهر، وفي نهاية الشهر الثالث، رأيتها تقبل حبلي. أيكون هناك شرير غرَ ربها أو اغتصبها ؟ الحقيقة أني لا أدري ماذا أفكر. ولكني في الحقيقة قد رأيت فيها نوعا من الكمال العظيم يجعلني أصر – ما حييت – على الإيمان بأنه لم يقع منها خطأ. وبعد فهذه هي الطريق التي أرى أنها تجنبني جميع المخاطر. سأحزم أمتعتي وأغادر المكان منذ الصباح الباكر دون أن أخطر أحدا. سأتركها وحيدة، وأرجو الله أن يحفظ من السوء.

ويبعث إلآله بالملاك جبرائيل لكي يطمئن يوسف الذي يطلب الصفح من مريم (٤١٩٧ – ٤٢٨٠). ويأمر قيرينوس حاكم يهودا. بإعلان مرسوم " أوغسطس " القاضي بإحصاء رعايا الإمبراطورية كلهم. فيعتزم يوسف ومريم وابن عمهما إلياسين الذهاب إلى بيت لحم – مهد أسرتهم – استجابة لأوامر المرسوم (٤٢٨١ – ٤٤٦٢). ولم يجد المسافرون لهم مكانا يأوون إليه إلا " كوخا عتيقا " حلوا فيه هم وثورهم وحمارهم (٤٤٦٣ – ٤٦٣٧).

حوار الرعاة (٤٦٣٨ - ٤٨٥٤)

ألوريس (الراعي الأول) :- الجو لطيف لا بأس به. هذا الفصل بالنسبة للرعاة، والحمدلله !

إيسمبرت (الراعي الثاني) :- إن الجو جميل مقبول بالنسبة لمن لا يشتط في الطلب.

بليون (الراعي الثالث) :- لن استطيع البقاء في المنزل، وأنا أرى هنا هذا الجو المنعش.

ألوريس : إن الجو لطيف لا بأس به، هذا الفصل بالنسبة للرعاية، والحمدلله !

إيسمبرت : تبا للغنى، وتبا للقلق ! فليست هناك حياة – أيا كاننت – تعدل حياة الراعي.

بليون : بالنسبة للناس الذين يلهون على هذا النحو، تبا للغنى، وتبا للقلق !

رفلارت (الراعي الرابع) : وأنا أيضا، اعتبروني منكم بلحيتي التي وخطها الشيب،. فإني حين أرى لدي من الخبز ما يكفيني، أصيح قائلا : تبا للغنى، وتبا للقلق !

ألوريس : ليس هناك حياة، أيا كانت، تعدل حياة الراعي.

إيسمبرت : أهناك متعة تعدل في عذوبتها متعة النظر إلى هذه الحقول

الجميلة، وتلك الحملان الوديعة التي ترعى وتمرح في المرج الجميل؟

بليون : يتكلم الناس عن الإمارات الكبيرة، وعن امتلاك القلاع والقصور الشاهقة. فهل هناك متعة أعذب من النظر إلى تلك الحقول الجميلة ؟

رفلارت : إذا كانت مخلاتي مليئة برءوس الثوم الكبيرة المغذية، فإني أغرد بنايي أغنية تعدل جميع السمفونيات.

ألوريس : أهناك متعة أعذب من متعة النظر إلى هذه الحقول الجميلة، وتلك الحملان الوديعة التي ترعى وتمرح في المرعى الجميل ؟ إن الرعاة كلما شاهدوا صفاء الجو، ابتهجو وغنوا وأولموا، ولم يدعوا ضربا من ضروب اللهو إلا تسلوا به فيما بينهم : إنهم يزينون قبعاتهم وينظفون ملابسهم، ويهتمون بخرافهم، ويطلقون كلامهم غير المدربة، ثم يدعونها إليهم من جديد. ويمضي النهار، وحين يقبل الليل يحكمون إغلاق حظائرهم، فإذا ما أقبلت الذئاب الجوعى تبغي الهجوم، صدتها الكلاب.

إيسمبرت : إن الرعاة حين يحرسون نعاجهم يقضون وقتا سعيدا، فهم إذ يحرسون نعاجهم يلعبون بآلاتهم الموسيقية، ويغردون أغانيهم البسيطة في مرح وسرور خالص، كما أن الراعيات الشابات العذاب يعرفن كيف يغنين ويقتطفن العشب العطري والأزهار الجميلة. آه ! ما ألذ أن يعيش المرء مائة عام، وأن يتسلى على

هذا النحو ! إن الرعاة يقضون أوقاتا سعيدة.

بليون : ما دام الراعي يستحوذ على مخلاة جيدة الإغلاق، مخلاة متينة خالية من الثقوب، فإنه يعتبر ملكا صغيرا، إذا كان لدى الراعي مخلاة متينة الأقفال، ويمكن إغلاقها من خلفها بصورة محكمة. فماذا ينقصه ؟ ماذا ؟ إن لديه قبعته الخوصية، ومثقابه، وكيسه الذي يضع فيه مخرازه وكلابته وعصاه الحبيبة، والصندوق الذي يحفظ فيه صبغته، والثوب الجميل الذي يستر به جسمه، والناي الطويل الجميل الذي يستخدمه في تسليته، والحذاء الجلدي المدعم من جهته الخلفية خير تدعيم. فما عليه إلا أن يمرح ويستمتع : إنه ملك صغير.

رفلارت : ومقصه وسكينه وقفازيه السميكين ذوي الأصبعين، وسفطه الذي يضع فيه الجوز، وتقويمه الخشبي، والشحم الذي يتبَل به طبق البازلاء، ومعطفه الشتوي، وكل هذه الأشياء أليست ذات قيمة بالنسبة له ؟ والتزالك الضخمة ذوات الثنايا، وما يكون لديه من نايين صفصافيين أو ثلاثة، والدفاف والنايات المختارة، وذلك الحذاء البدائي للانزلاق على الجليد، والمقود الذي يشبه ما يرى منه في أيدي إخوان المرح، لكي يقودوا به كلابهم الكبيرة. إني لو أردت أن أصف كل ما لدي الرعاة لاحتجت إلى أشهر كاملة

ألوريس : إننا هنا نترنم بأناشيدنا، ولكني لا أرى راعيا واحدا يفكر في

الذهاب لعمله، والعناية بنعاجه.

إيسمبرت : لا تعجل، يا ألوريس، إن الشمس لا تزال عالية. فإذا رأينا أن الوقت قد حان، أستطعنا أن نسارع بالذهاب.

بليون : لنبق في هذا المكان بعض الوقت، دون أي قلق. فليس هناك خير منه بالنسبة لنا، ومن العبث أن نوغل في الصعود أكثر من ذلك. فنحن هنا نرى خرافنا ونعاجنا تجتر ومن العسير أن يضل أحدها دون أن نسارع باللحاق به.

رفلارت : دع كل هذا الآن، وحدثنا عما تعرف من أخبار أولا وقبل كل شئ.

ألوريس : ليس هناك من يفوقك في معرفة الأخبار، يا رفلارت، فجعبتك لا تخلو من الأخبار مطلقا، لأنك تجعل القديم منها جديدا قبل أن تتزود بغيره.

إيسمبرت : أما هو، فإنه لا يقل قدرة على الكذب عن أي جار من جيرانه، مهما عظم شأنه، وفي وسعه أن يحكي في كل يوم من أيام الأسبوع بقدر ما يستطيع أي واحد غيره في أيام الآحاد.

رفلارت : أتريدون – إذن – أن أبدأ حديثي ؟

بليون : لا تكذب، وكن حي الضمير.

رفلارت : أتريدون، إذن أن أبدأ ؟

ألوريس : من العدل أن ننصت له، ما دمنا قد طلبنا منه أن يتكلم

رفلارت : أتريدون إذن، أن أبدأ حديثي ؟ سأقول لكم – دون كذب –:
إنه حدث في الليلة الماضية حوالي الغروب أن انطلق السيد إيزنحران للبحث عن صيد كعادته، فابتدأ بالذهاب إلى حظيرتي، وقفز السياج، ولو لم يصادف أني كنت مستيقظا لأخيط جلبابي، لكان قد ذهب بخروف سمين فوق كفله دون خوف ولا وجل. وهنا أيقظت بريبه قائلا : هارو ! هارو ! وبذلك استخلص روبان من قبضته، لسوء حظه، وأصبح مطلق الحرية، ولولا ذلك لكان قد أكله.

إيسمبرت : هل فكرت طويلا لتقص علينا هذه الحكايات الجميلة ؟

بليون : إذا لم تقص علينا ما هو خير من تلك، كنت لا تعدل عندي فص ثوم.

ألوريس : أهذا كل ما في الأمر ؟

رفلارت : لا تنبسوا بكلمة، ستسمعون أحداثا مذهلة : بالأمس ذهبت بأكثر من ثلاثين حملا إلى بيت لحم، لأبيعها هناك بمناسبة العيد، ولا شك أن أي شخص لم ير أناسه، فما عليه إلا أن يذهب إلى هناك، وسيرى منهم العدد الكافي، ولكن ماذا ؟ ألا تعرف ذلك يا إيسمبرت ؟ وهناك رأيت تختا كان يجلس على قمته أناس يلبسون ملابس من الكتان، ويلتحفون بمعاطف

جعلتهم يشبهون القردة، وكانوا يكادون يتلاصقون في جلستهم، وراحوا ينشرون صحائف كبيرة، ويستعدون للكتابة. لكتابة ماذا ؟ لا أدري في الحقيقة، ومهما يكن من شئ، فإن ذلك لا يعنيني.

إيسمبرت : اختصر.

رفلارت : لقد وصلت إلى النهاية، أو كدت. وبينما كنت أنظر إلى أعلى، جاءني واحد من أولئك الذين لا أدري من هم، واحد من أولئك الذين يحبسون الناس.

هيا ! ساعدني في معرفة اسمه... من أولئك الذين يحملون عصيا من الفضة، إنه.... إنه.

بليون : يريد أن يقول شرطيا يسوق الناس إلى السجن.

رفلارت : لا أكثر ولا أقل : إنك على حق. ويمكن القول بأنهم قادوني بالقوة أمام " هذه البغال " الضخمة، وهناك سألوني – في لهجة كلها استعلاء –: " من أين أنت ؟ " وأجبت : " أنا من مدينتنا، ولدي لا يكفيني من البازلاء والشحم. " فسئلت ثانية : " ما اسمك؟ " وأجبت : " رفلارت، أهذا يعنيكم في شئ ؟ ". قالوا " كلا " ولكنهم ضحكوا من هذا الاسم ضحك المجانين، وحينئذ وضعوني في سجلاتهم، وأطلقوا سراحي دون شربة ماء.

ألوريس : ودون أكل ؟

رفلات : نعم، وحياتي. وهذا أمر لا يدعو إلى الضحك.

إيسمبرت : منذ ثمانية أيام سمعت أن السيد لا أدري من... ما اسمه ؟

بليون : الإمبراطور.

إيسمبرت : نعم، إمبراطور روما. لقد قيل لي : إنه أمر أن يكتب في أوراقه اسم كل رجل. فهل هو – يا ترى – غبي إلى هذا الحد ؟

ألوريس : أن يكتب ؟ ولكن بأية مناسبة ؟ أيكون ذلك من أجل إشعال الحرب ؟

رفلارت : ربما، أو لعله من أجل فرض ضريبة. لا تخف ! فلا شك أن الأمر سيكون ثقيلا علينا !

بليون : لا أدري. فليكن ما يكون ! إذا كان الناس سيقبلون من أقطار عديدة، فإن ذلك سيسهل بيع خرافنا في بيت لحم. وفي غيرها.

إيسمبرت : لقد آن الأوان لكي نذهب ونرتدي ملابسنا، لأنه يجب علينا – أثناء الليل – أن نحرس القطيع، كل من ناحيته.

ألوريس : أنا على تمام الاستعداد.

رفلارت : وأنا أيضا مستعد للسهر حتى الصباح.

بليون : ولما كنت أنا قد أحضرت تزلكي وقفازي والأزرار الكبيرة، فإني لن أخشى شيئا حين يتجمد من البرد كل شئ، حتى الضفادع.

إيسمبرت : إننا على خير ما يرام، كل منا في مكانه، وإذا رأى أحدنا الذئب، فليناد !

ألوريس : لو جاء لكان في مجيئه مسلاة لنا، فليحاول كل منا ألا يؤخذ على غرة !

وحينئذ يعلن الميلاد (٤٨٦٥ – ٤٩٩٩) ويتبع ذلك عبادة الملائكة (٥٠٠٠ – ٥٠٤٣)، ثم منظر غنائي يقدم فيه يوسف ومريم شكرهما لله في صورة نشيد يتبادلان غناءه بينهما (٥٠٤٤ – ٥١٦٢)، ويحمل الملائكة النبأ السعيد إلى الرعاة، كما يحمله النجم إلى الملائكة، ويذهب هؤلاء وأولئك لتحية الملك الذي ولد. ولكن هيرود يسمع هو الآخر بالنبأ الذي وتهدده، وذلك عن طريق السحرة الذين سعوا إليه (٥١٦٣ – ٦٧٤٩) وأخيرا نرى رحيل الملوك السحرة الأربعة الذين لا يرى المؤلف بأسا في أن يجعلهم يشربون (٦٨٤٧ – ٧٦٥٠)، ثم المثول في المعبد (٦٨٤٨ – ٧١٩٨)، ثم الفرار إلى مصر حيث تسقط الأصنام لدى رؤية الطفل (٧١٩٩ – ٧٥١٥)، ومذبحة البرآء (٧٥١٦ – ٧٨٥١)، وانتحار هيرود الذي تحمله الشياطين إلى الجحيم (٧٨٥٢ – ٧٩٩٥)، والعودة إلى فلسطين (٧٩٩٦ – ٨٠٣١)، والنقاش بين عيسى والفقهاء حيث ينتهز المؤلف الفرصة ليعرض مواهبه باعتباره رجل دين، ولكن من حسن الحظ أن هذا النقاش لا يلبث أن ينقطع عن طريق إيراد مشهد أكثر منه درامية، وهو مشهد القلق الذي يعتري مريم ويوسف في بحثهما عن عيسى (٨٠٣٢ – ٩٩٣٦). ويختم المؤلف اليوم الأول بتلخيص ما تقدم عرضه، ودعوة الحضور إلى المجئ في اليوم التالي لمتابعة المشاهدة (٩٩٣٧ – ٩٩٧٧).

اليوم الثاني

تشتمل المقدمة على ملخص جديد لليوم الأول (٩٩٧٨ – ١٠٠٤٣). ثم يجئ يوحنا المعمدان – بدعوة من الممثل – فيلقي عظة في موضوع " مارسوا التوبة " (١٠٠٤٤ – ١٠٢٠٤). وبعد ذلك يجيب اليهود الذين جاءوا يسألون عن رسالته (١٠٢٠٥ – ١٠٢٨١)، ويعمد عيسى (١٠٢٨٢ – ١٠٤٤٢) الذي يذهب إلى الصحراء حيث يحاول الشيطان عبثا أن يغريه (١٠٤٤٣ – ١٠٧٣٢). ويسجن يوحنا المعمدان بأمر هيرود الذي كان يوحنا قد جاء إليه يزنبه على سوء سلوكه (١٠٧٣٣ – ١٠٨٥٠). ويتبع ذلك اهتداء الحواريين (١٠٨٥١ – ١١١٢٣)، وأفراح كنة (١١١٢٤ – ١١٣٣٤)، وطرد التجار من المعبد (١١٣٣٥ – ١١٤٣١)، واعتناق نيقوديموس الدين الجديد (١١٤٣٢ – ١١٥٤١)، ومقابلة السامرية (١١٥٤٢ – ١١٧٠٠)، وبعث فتاة وطفل من الموت (١١٧٠١ – ١١٩٨٤)، وقطع رأس يوحنا المعمدان (١١٩٨٥ – ١٢٢٢٨)، وشفاء الكنعانية (١٢٢٢٩ – ١٢٣٦٠)، والمشلول (١٧٣٦١ – ١٢٥٧٦)، وموعظة الجبل (١٢٥٧٧ – ١٢٨٢٨)، ومضاعفة الخبز (١٢٨٢٩ – ١٣٠٢٢)، تغير هيئة المسيح فوق الجبل (١٣٠٢٣ – ١٣٣٥٢)، مؤامرة المنافقين، وحادث المرأة الزانية (١٣٣٥٣ – ١٣٧٥٦)، الغداء في بيت سمعان، وحكاية المجدلية (١٣٧٥٧ – ١٤٠٧٠)، وإبراء الأكمه (١٤٠٧١ – ١٤٦٧٧)، وإحياء العازر (١٤٦٧٧ – ١٥٠٩٩).

إحياء لازار (العازر)

بروتومون : مرثا، سيدتي المهيبة،

إني أرى عيسى مقبلا إلى هنا،

ومعه جميع حواييه :

فعلا خففت للقائه،

فإن هذا أمر يعتبر دائما

علامة على عظيم الحب.

مارثا : سأذهب إذن دون انتظار،

لأني أتوق إلى شخصه كثيرا.

عيسى، سيدي الأكرم،

إني أعتقد بكل قلبي

أنك لو كنت هنا،

لما مات أخي،

ولكن هناك أمرا يطمئنني،

وهو أني أعرف جيدا

أن كل ما تريد الحصول عليه

من الله تجاب إليه.

عيسى : سيبعث أخوك حيا،

يا مارثا، لا يكن عندك في ذلك ريب.

مارثا : سيدي، إن الرأي الشائع

إنه في اليوم الآخر

سيبعث الجميع حقيقة،

ولذلك أعتقد دون ريب

أنه لابد أن يبعث،

ولكن ذلك لا يكفيني في شئ.

عيسى : يجب أن تؤمني بأني الحياة

والبعث الحقيقي،

فكل من آمن بي دون تردد،

ومات موتا جسمانيا،

لم يخش مطلقا خطر الموت،

الموت الدائم الأبدي.

فهل أنت تؤمنين بما سمعت ؟

مارثا : نعم، يا مولاي الحبيب !

أو من به بكل قلبي

وبأنك المسيح، ابن الله

الذي جئت إلى العالم من أجلنا.

(وهنا تعود إلى المذبح، وتنادي مريم، أختها.)

مجدلية، يا أختي، انهضي :

إنه عيسى، سيدنا، قد جاء،

فهيا إليه.

المجدلية : مرحبا !

يا له من نبي مفعم بالفضيلة !

إنني في غاية التطلع

للذهاب لرؤيته من فوري.

توبال : إلى أين تذهب مريم الآن

وقد انطلقت بهذه السرعة ؟

جدعون : إنها ذاهبة إلى قبر

لعزاز – على ما أعتقد –

ليك تبكي أخاها

وتنثر عليه كل دموعها.

روبين : أن تلك السيدة الطيبة حزينة

مما رماها به القدر،

وإذا لم ترزق شيئا من العزاء،

فإن حزنها سيكون قاتلا.

سمعان (الأبرص) : أيها السادة الأجلاء، هيا بنا إليها،

لكي نبعد عنها اليأس.

ابيرون : سنحاول أن نعزيها،

أتوسل إليكم أن نسارع باتباعه،

لأن القلب المفعم بالحزن

تصلحه الصحبة الطيبة.

(هنا ترنمي المجدلية على قدمي عيسى)

المجدلية : ها ! أيها السيد المفعم باللطف،

كيف أقصيتنا ؟

كيف أبطأت عنا إلى هذا الحد ؟

كيف تتركنا هكذا ؟

لو أنك كنت هنا

لما مات أخي،

لأنك كنت عالجته جيدا

بمجرد كلمة منك.

إن حزني عليه يكاد يصيبني بالجنون.

كلما مرت ذكراه بخاطري.

عيسى : لا أستطيع منع نفس من البكاء

ولا كياني نفسه من الارتجاف

حينما أرى كل هؤلاء الرجال والنساء

يظهرون كل هذا الحزن على لعزار.

القديس برتلمي : إنهم جزعون عليه إلى حد يثير الإشفاق،

وكل أصدقائه الأقربين.

يحملون عليه الحداد.

عيسى : أين وضعتموه ؟

أخبروني، فإني أريد معرفة ذلك.

مؤاب : أيها المولى الحبيب، هيا لتراه :

ها هو التابوت الذي يرقد فيه

عيسى : إن قلبي يرتجف إشفاقا،

ودموعي تنهمر من عيني

دليلا على هذا الحزن :

هذا ما تقضي به الصداقة.

نبتالين : انظروا إلى ذلك الوجه الحليم،

وجه عيسى وقد بللته الدموع.

مؤاب : إن هذه العبارات تدل

على أنه كان يحبه حبا خالصا.

توبال : لست أفهم معنى هذا الألم :

إن عيسى، وقد أعاد البصر

إلى ذلك الذي قد ولد أعمى،

ألم يكن في وسعه أن يفعل مثل ذلك

فيحمي صديقه من الموت،

ما دام يحبه إلى هذا الحد ؟

عيسى : اكشفوا لي هذا القبر :

ارفعوا الحجر من فوقه.

مارثا : ها ! سيدي، إن ذلك لابد أن يصيبهم بخيبة الأمل :

فهو يضطجع فيه منذ أربعة أيام،

ومن ثم لابد أن يكون بادي النتن،

حتى لا يمكن لنفس أن تطيق ريحه.

عيسى : لقد أخبرتك منذ وقت طويل

أنك إن اعتقدت اعتقادا كاملا،

أدركت مجد الله،

وتجلي أمامك هذا المجد.

أبكوت : هيا، إذن، ليرفع الحجر،

وليقدم كل منكم يد العون، أيها السادة.

كليوس : مهما كانت الرائحة المنبعثة،

لنرفع هذا الحجر،

وبعد ذلك سنرى

مبلغ ما لدى عيسى من قدرة.

هيا ! ارفعوا !

توبال : ولكن هيا ! ارفعوا !

إنكم لا تفعلون أكثر من الثرثرة.

أبكوت : إنكم تضايقوننا.

بعراككم.

جدعون : أهو هذا ؟

هيا ! ارفعوا !

كليوس : ولكن هيا ارفعوا !

هيا، بحق الله، هيا !

لقد بدأ في النزول.

أبكوت : ليست هذه طريقة الرفع.

هيا ! ارفعوا !

جدعون : هيا ارفعوه !

إنكم لا تفعلون غير الثرثرة.

كليوس : إنكم تضايقوننا بعراككم.

هنا، إلي ! قليلا من المجهود... هيا !..

وليبق – حيث هو –

كل من يخشى على نفسه القليل من الأذى.

توبال : انظروا، إن التابوت مفتوح :

فافعل ما يحلو لك، يا سيدي.

عيسى : أبي الذي في السماء، إني صادق الرغبة

في أن أتوسل إليك، كما تعرف،

لكي تستجيب لندائي،

ومع ذلك، فإني أعلم علم اليقين

أنك لا ترد لي أبدا أمرا

وأنك تسمع رجائي في كل ما أريد،

إني أريد أن أدعوك

من أجل الحاضرين الذين يرونني،

لكي يؤمنوا بكل قواهم

بأنك بعثت بي إلى هذا العالم.

اخرج، يا لعزار، أصدقائي الأجلاء،

(بصوت عال)

إني أريد ذلك وآمرك به

(فترة صمت)

(هنا لعزار بكفنه)

لعزار : ما أعظم قدرتك،

وما أسمى أفعالك،

بوركت يابن الإله المجيد

الذي في قبضته السموات والأرض !

حمدا لله وشكرا

على هذه المنة السامية

التي خصتني بها طيبتك العذبة

حين أعدتني إلى الحياة.

عيسى : خلصوه دون انتظار،

ودعوه يذهب لحال سبيله.

يهيج الشياطين ويموجون بعد هذا البعث، ويعتزم الشيطان كبيرهم – الذي يحس أن سلطانه يفر منه – أن يغري أمراء اليهود لكي يعدموا عيسى (١٥١٠٠ – ١٥٢٠٥). فيجتمع هؤلاء الأمراء لدى قيافافي الوقت الذي تتوسل فيه العذراء إلى عيسى لكي يفر (١٥٢٠٦ – ١٥٧٤٣). ويأوي عيسى إلى بيت لحم لدى لعزار وأخته (١٥٧٤٤ – ١٥٩٤٢) ويتلو ذلك الغداء لدى سمعان حيث يوطد يهوذا العزم – بعد أن أزرى به عيسى أمام المجدلية – على خيانته (١٥٩٤٣ – ١٦٠٤٦)، وعودة النصر إلى بيت المقدس (١٦٠٤٧ – ١٦٣٨٢).

وتعبر السيدة العذراء من جديد عن شكاياتها التي تنتهي بالخضوع لإرادة ابنها (١٦٣٨٣ – ١٦٦٣٨). ويبشر عيسى بالمعبد في حضر قيافا وحنان اللذين يسعيان إلى هلاكه بأسئلتهما الخبيثة (١٦٦٣٩ – ١٧٣٨٦). وفي أثناء عودة عيسى إلى بيت عنيا (١٧٢٨٧ – ١٧٣٢٢) يعقد الشياطين مؤتمرا، ويخون يهوذا سيده تحت إغراء الشيطان (١٧٣٢٣ – ١٧٥٩٨) وبعد ذلك يتوالى العشاء الأخير (١٧٥٩٩ – ١٨٥٣٢)، وإعدادات القبض (١٨٥٣٣ – ١٨٦٧٢)، والأسى في بستان الزيتون (١٨٦٧٣ – ١٩٠١٥)، والقبض على

عيسى، وفرار الحمواريين (١٩٠١٦ - ١٩٣٣٩)، واستجواب عيسى على يد حنان، وإنكار بطرس (١٩٤٠ - ١٩٧١٩). وأخيرا نرانا أمام مشهد مؤثر طنان حيث نشهد عيسى صامت يعاني إهانات حراسه، " الشرطيين " رولارت ودنتارت وجاديفر. ويختم المؤلف اليوم الثاني بدعوة المتفرجين إلى العودة في اليوم التالي.

اليوم الثالث

مقدمة (١٩٩٤٧ - ٢٠١٤٤)

سنواصل الكلام في موضوعنا الطيب المفيد لجميع القلوب العامرة بالتقوى، ولذا سنعالج ظروف الآلام الشديدة القاسية التي كانت ثمنا لخلاصنا. ويجب علينا – من أجل خلاصنا – أن يعمد كل منا، البداية، إلى نحيته بخشوع، وأن نسارع إلى القول بكل خضوع : أحييا يا مريم Ave Marin.

وبعد أن تنتهي هذه التحية الطيبة المباركة، أتوسل إليكم بكل تواضع – أيها السادة – في أن تلوذوا بالصمت، وأن تعدوا نفوسكم لتصور الأسى والانعطاف والحب الكامل التي تقودنا إليها هذه الآلام وتوجد طبيعتنا البشرية، وفكروا في أن من يبغي التعلم من هذا العمل يجني منه ثمارا عظيمة، وأنه لا يوجد في هذا العالم تاريخ يعدله في الخصب أو الإثمار، أو يساويه في ارشاد القلب إلى الخير الذي يجب عليه أن يتجه إليه. إن من يحسن الإصغاء إليه، ويحيد فهمه لا يتأتى له

مطلقا أن يريد عمل الشر، بل يعتبر أن كل متعة دنيوية متعة سيئة خداعة زائلة، ولا توجد خصومة بالنسبة لديه إلا احتملها بصبر، مهما كانت شدتها، لأنه إذا تصور الكارثة التي حلت به أدركه القنوط، ولكنه حين يفكر أن ابن الله السعيد قد تألم كثيرا، وعانى كثيرا من أجل تطهيرنا من الأدران، يدرك أن ما يعاني هو منه لا يعتبر شيئا بالنسبة للحمل الذي أراد عيسى أن يضطلع به من أجل الإنسان.

وهكذا يراه وقد ضبط إرادته تبعا لهذه المرآة التي يجب على كل قلب أن ينظر فيها برفق لكي يرق فيها آلامه، وقد آلينا على أنفسنا – لكي نكون متواضعين في انتهاج هذا المسلك – أن نضع أمام أبصاركم هذه المرآة السماوية على خير وجه تجود به الطاقة، وبصورة محسوسة، وذلك تبعا للشخصيات. فانظروا جيدا تصبحوا من الحكماء، إن كل إنسان يلمح فيها صورته، ومن نظر إلى نفسه جيدا، رأى نفسه جيدا. وفقنا الله في النظر فيها لكي يريح عن طريقها رؤية الجوهر الإلهي الخالد الذي لا نهاية لحكمه بعد رؤية هذه الحياة الفانية (الأبيات ١٩٩٤٧ – ٢٠٠٠٥)،

(وقد رأينا أن نستعيض عن تحليل هذا اليوم الثالث بترجمة الملخص الذي تعرضه مقدمة اليوم الرابع (٢٧٤٩٥ – ٢٧٥٦٦) مع الإشارة إلى الأبيات بين أقواس من طبعة باريس – رينو، وذلك تمشيا مع الخطة التي سرنا عليها حتى الآن).

لقد بدأنا – على ما يبدو لي – بأن بينا كيف أن حنان، ذلك

الكلب الغدار، قد عامل عيسى الرقيق بغلظة وفظاظة طوال الليل دون أن يترك له لحظة هدوء واحدة (٢٠١٤٥ – ٢٠٢٣٣)، وكيف أنه – لكي يصل إلى أغراضه – قد قاده في مطلع النهار لدى قيافا (٢٠٢٣٤ – ٢٠٣٢٨). وقد ترك هنالك حيث تجددت آلامه، لأنه استجوب وسخر منه وضرب وأهين، وتغطي وجهه الجميل بالبصاق، واتهم بشهادة الزور، وفي النهاية أرسل أمام بيلاتوس لكي يعدم تحت أشد أنواع القسر (٢٠٣٢٩ – ٢١١١٩). وقد رأيتم بعد ذلك ندم يهوذا الذي أساء التصرف، حينما شنق نفسه من شدة القنوط (٢١١٢١ – ٢١١٨١ و – ٢١٦٠٤ – ٢٢١٧٦). ثم استطعتم أن تروا كيف أن بيلاتوس قد أجل موت المبارك عيسى إلى أمد بعيد رغم صياح اليهود أو اتهاماتهم، أولئك الذين لم يكفوا عن المطالبة بموته (٢١١٨٢ – ٢١٦٠٣، ٢٢١٧٧ – ٢٢٧١٧). بعد ذلك أمر بيلاتوس ثلاثة أو أربعة من عتاة الجنود الأشرار بأن يضربوه إرضاء لليهود، ولكن لم يكن ذلك إلا ليزيد من صخبهم. ولكنكم كنتم قد رأيتم قبل ذلك كيف أن الصلح قد تم بين بيلاتوس وهيرود على يد عيسى (٢٢٦١٨ – ٢٣٢٦٩). ورأيتم أيضا خوف زوجة بيلاتوس وقلقها من أن يصدر زوجها ذلك الحكم الذي انفطر له قلباهما فيما بعد (٢٣٢٧٠ – ٢٣٥٢٩). وبعد كل هذه التفاصيل تمسك اليهود كل التمسك بمعارضتهم، وأصدروا من ضروب التهديد ما جعل بيلاتوس يصدر حكمه عليه، ولكنه قد اضطر اضطرارا إلى هذا المسلك، وذلك لكي يتخلص من الموقف (٢٣٥٣٠ – ٢٣٦٥٥). ثم رأيتموه وهو

يحمل الصليب ويساق إلى الموت بين لصين حقيرين (٢٣٦٥٦ – ٢٣٩٩٥). وسمعتم النساء الصالحات يشكون ويتوجعن (٢٣٩٩٦ – ٢٤١٠٩)، وسمعتم أمه الوديعة تنفث أساها، وأصدقاءه ينتحبون أشد انتحاب على فقدان سيدهم الذي تولهت قلوبهم عليه (٢٤١١٠ – ٢٤٤٤٩). وحينئذ أرقد ابن الله المجيد على الصليب بصورة محزنة حيث عانى السخرية المرة، والعار الفادح، والتهكم الكالح، ثم الموت الأليم في نهاية الأمر تحت بصر أمه الوديعة العزيزة (٢٤٤٥٠ – ٢٦٧٠٧)، ورأيتم الإنزال من فوق الصليب، وجسده حين قام يوسف ونيقوميدوس بدفنه، وقد بدا عليهما التأثر الحقيقي. (٢٦٧٠٨ – ٢٧٣٣٧). وحينئذ قام اليهود بإغلاق القبر عليه بالملاط، وأقاموا الحرس من حوله خوفا من أن يقبل أصدقاؤه المجتمعون ويخطفونه في ظلام الليل، وقد حاول كل جندي أن يقوم بدوره بكل صرامة، وهنا توقف تمثيلنا (٢٧٢٣٨ – ١٧٤٥١).

موت يهوذا

يهوذا : ها هو ذا سيدي يساق إلى هنا، ويعامل معاملة زرية، أعتقد أن قضيته ستنتهي بصورة يرثى لها، وأنها ستتمخض عن موته : ليس هناك من علاج لموقفه. آه، أيها القاتل الشرير، ماذا فعلت ؟ أيها القلب الغادر، ماذا برث ؟ على من جنيت ؟ لقد ارتكبت جريمة كبيرة لن يغفر لك ذنبها، ولن يستطيع البرئ منها خلاصا. لقد ارتكبت أشنع خطيئة يمكن لعين أن تتأملها، ارتكبتها بقلبي

الشرير الرهيب الذي لم يرد قط أن يتصور الخير. لقد أوقعت البرئ العادل المسالم بالاحتيال والخديعة. ليس في الإمكان – فيما أعتقد – أن نال الصفح. عيسى، أيها الرجل القديس العادل المتسامح الذي اجتمعت فيه كل ضروب الخير، لقد كنت فيما مضى من قطيعك، وأخذتني معك، أما الآن فقد باعك قلبي الشرير الغافل بمبلغ تافه من المال، وهذه غلطة كبرى. أيها المال الشرير الملعون، أفي وسع إنسان أن يفيك حقك من اللعنة، وأنت سبب الحزن والغضب، وفيك كل ما يدعو إلى اللعنة ؟ ملعون عبد السوء الذي استخرجك من الأرض، لأنك أنت سبب ما انقض علي من ألم لن يفارقني. وأنت يا سيد المذهب الحق، لقد كنت من رجال مدرستك فيما مضى : والطاعة العليا ليست مما يصح النفور منه، ولقد أسأت استعمال ذلك، فلست أهلا له، إذ أني بخيانتي الإجرامية قد انفصلت عنه، وأصبحت حزينا كسيف البال. آه ! أيتها القبلة المغرضة الحارة. أنت التي كنت أشد إحراقا من قضيب الحديد الملتهب، أنت التي تشعلين قلوب البشر وتسعرينها في شرر الجحيم، بأي حماس استوليت على إرادتي لتقلبيها ؟ دفعتني إلى حمى الجحيم لأظل فيه إلى أبد الآبدين. إن الرعب يستولي على من امتلاكك أيها المال الخداع الحقير : لقد دفعتني إلى ارتكاب عمل شيطاني لن أبرأ من تبعته، لذلك لأردنك إلى من أخذتك منهم، إلى أولئك الذين أعطوني أدوات ضياعي.

(يهوذا يقذف بالمال إلى اليهود)

أيها السادة، خذوا مالكم، لقد أثمت، وا أسفاه ! لقد أثمت وارتكبت جريمة كبرى هي سبب الخطر المحدق بي.

حنان : وما شأننا ؟

قيافا. ما شأننا ؟ إذا كنت قد ارتكبت غلطة، بل حماقة، فعليك أن تتجرعها. إن فعلتك لا تعود إلا إليك، فتجرعها، هذا لا يعنيني وليس لنا أن نهتم بك.

يهوذ : آه ! أيها الناس سيئو النية، لقد ألقيت بين أيديكم بأزكى دم رآه البشر، وإذا كان لابد لي أن أتجرع الموت من أجله، فهذه غلطتي.

حنان : نرجو لك الخير، خلص نفسك بأحسن ما تستطيع، فليس لك لدينا من عزاء غير ذلك، وإذا كنت قد عملت خيرا، فمن حسن حظك، أما إذا كنت قد عملت شرا، فليكن الشر من نصيبك، ولتبؤ بالعار.

يهوذا : وأسفاه ! يا له من جواب قاس ! إن أولئك الذين عملت على إرضائهم مبتهجون لحزني، ولا يهتمون بآلامي. هذا هي نهاية الخيانة، إذا سقط الخائن ضحك من شقوقه كل الناس، وخيانتي ستنتهي شر نهاية، وسينتهي بي الأمر إلى الوقوع في شر حال. سأغادر هذا المكان، لأني أشعر فيه بنوع من الملل جدير بصدع

قلبي حتى الانفجار إذا استمررت في البقاء هنا. سأذهب للبحث عن مرعي في مكان آخر.

لقد شئمت روحي الحياة، وراح جسمي ينوح عليها بأكمله حتى لم يعد لها محيص عن التخلص منه، وأصبحت تبحث عن وسائل هذا التخلص. إن تعاملها الإنساني جدا الذي كان مشربا بالحب فيما مضى تحول الآن إلى تمرد وبكاء ونحيب، ذلك أن الروح قد أبغضت جسمها كما أبغض الجسم الروح، وهما الآن متفقان على الفراق بصورة قبيحة زرية وسط الدموع والخزي، وبين ضروب العار. ولم يبق الآن إلا العثور على من يقوم بالتفريق بينهما، ولو وجدت روحي من يساعدها على ذلك لكانت قد رحلت. فأين ستبحثين، يا روحي ؟ ليس في وسعك إلا أن تنادي كل شياطين الجحيم الملعونين، أعداء بني آدم، لأنك إن لجأت إليهم، فلا شك أنهم سيأتون لنجدتك. ليس أمامك إلا أن تستدعيهم بتكرار النداء، وهذه هي الصيغة : أيها القطيع المروع الكريه، أيتها الشياطين المحبوسة في قاع الهاوية، أيتها الأرواح الخداعة المحرومة من كل مجد، أيها الجنس الملعون الحقير المحكوم عليه بالعقاب الأبدي الذي لا نهاية له بالنسبة لهم، تعالوا، انطلقوا ! تعالوا، أيها الشياطين امثلوا أمامي، أقبلوا لمساعدة عبدكم الذي يناديكم ويدعوكم بأعلى صراخه ! تعالوا لتقتلوا مادته الفانية، لتحطموها وتبددوها، أو على الأقل، لكي تقدموا لي نصيحة تساعدني على التخلص منها.

أبليس :– أيها الشياطين، أنصتوا : سألقي عليكم خطابا رضيا في بضع

كلمات. لقد سمعت – على ما يبدو لي – صوت عبدنا يهودا الشرير الخائن الذي راح في غمرة الروع الذي يرعى بدنه يدعو إليه الموت بصوت عال، ولا أحد يجيبه. فأخذ ينادينا الواحد تلو الآخر. ونحن لسنا من البعد عنه بدرجة تمنعنا من أن نخف لمعونته، يجب أن نعينه بقدر ما نستطيع. أيها القنوط، إنك ابني ونسلي الحبيب. استجب لعبدي الذي يدعونا جميعا بكل قواه، امنحي ما ينبغي له، بالطريقة التي تعرفها، أنت يا من اعتدت أن تجلبهم هكذا قطعانا.

القنوط :– أبي أبليس، إذ لم أنجح في ذلك، فإني أرضى بفقدان مكاني.

(فترة صمت)

القنوط :– أيها الشرير، ماذا تريد مني أن أفعل، إلى أي شاطئ تريد أن ترسو ؟

يهوذا :– لا أدري : إن عيني لم تعودا تجرؤان على النظر إلى السماء.

القنوط : إذا أردت أن تسأل عن اسمي، فإنك ستعرفه من فورك ؟

يهوذا : من أين أقبلت ؟

القنوط : من أعمق أعماق الجحيم

يهوذا : ما اسمك ؟

القنوط : القنوط ؟!.

يهوذا : يا لرهبة الانتقام، يا لشناعة الخطر. اقترب، وأنجدني، إذا كان في مقدور الموت أن يخفف آلامي.

القنوط : نعم، على أحسن ما يرام.

يهوذا : تقدم إذن، وطالب بأيامي اللعينة.

القنوط : اطمئن. فإني على استعداد لاختزال عذابك.

يهوذا : قل لي، أيها القنوط، قل لي، أيها الوحش الضاري : أيبدو لك أن آلامي تبلغ من القوة بحيث تغمر قلبي في هذه المرارة ؟

القنوط : من اليسير عليك أن تدرك أنك لن تستطيع الحصول على غفران لخطيئتك.

يهوذا : وا أسفاه ! إن سيدي طيب إلى أقصى حد، وهو جد ميال إلى العفو ! فلو ذهبت إليه أطلب الغفران، ألا يعفو عني ؟

القنوط : كلا، لأن الذي يدس السم، لا يلقي على فعلته جزاء غير الموت.

يهذوا : لم أسمعه يتكلم قط إلا عن العفو، العفو. وهذه علامة على انه يجب البذل.

القنوط : من المستحيل عليه أن يصفح عنك ليس لخائن أي حق في الصفح.

يهوذا : وا أسفاه ! هذا حق، لقد خنته وعصيت أمره، ولكنه معدن الشفقة.

القنوط : إنه يبغضك بغضا يجعلك لا تجرؤ على المثول بين يديه خجلا.

يهوذا : أفهم من كلامك أنه لن يستطيع الصفح عني مطلقا، مع أنه يستحوذ على قدرة إلهية.

القنوط : أنا أعترف بأنه يستطيع ذلك، ولكنه لن يقبله.

يهوذا : ولماذا ؟

القنوط : لأنك لست له أهلا.

يهوذا : أما أنا، فإني أهل لذلك، وفي وسعي أن أدافع عن رأيي، لأنه كثيرا ما ذكر أنه إنما جاء من أجل الآثمين، فإذا كان قد نزل من أجل الآثمين وعرف أني أثمت، وما دام قد بسط غفرانه على الجميع، فلابد أن أنال – أنا أيضا – هذا الغفران، وليس في مقدوره أن يفعل غير ذلك.

القنوط : سأفترض جدلا وجاهة حجتك، ولكن هناك فرقا بين الخطايا. بعضها صغير وبعضها كبير، وليس منها ما هو أكبر من خطيئتك، لأنها تمس شخصه بصورة مباشرة. ومن ثم إذا كان يصنع الخير للآخرين، فإن ذلك لا يغير شيئا من حالتك.

يهوذا : إذا اتجهت نفسي نحو العذراء الوديعة، مريم، وشرحت لها ما يعتريها من آلام، فإني أعتقد – على العكس من ذلك – أنها تحصل لي على عفو ابنها، لأنها أمه وحبيبته، وما تطلبه الأم لن يرفضه الابن.

القنوط : لو فعلت ذلك لكانت هذه أكبر حماقة تستطيع ارتكابها لأنك أسأت معاملة الابن والأم. وجرح الأم لا يزال ينزف دما، فإذا توسلت إليها ألف مرة، ما أرضيتها، لأن الجرح الذي يصيب جسم الابن يحسه قلب الأم.

يهوذ : لا رأي إذن إلا أن أتجرع غصص الموت، ولكني – مع ذلك – قد اعترفت بذنبي حين قلت لقد أخطأت، وبعد ذلك قمت بما يرضي حين رددت النقود، ثم شعرت بندم كاد ينفجر له قلبي ؟

القنوط : لقد أدليت بهذا الاعتراف دون طهارة الطوية، ورددت المال حقا ولكن ليس إلى الشخص المعتدي عليه، وقد أجتهدت في الشعور بالندم، ولكن ذلك لم يكن إلا نتيجة لعارك المركز. لذلك كان كل ما قلته هباء في هباء، ولا ثمرة له.

يهوذا : هل أصبحت روحي – إذن – من نصيب الشيطان، ومقضيا عليا بالخسران !

القنوط : بالضرورة.

يهوذا : مقضي علي بالهاوية الأبدية ؟ أليس من وسيلة لإصلاح ذلك أيها السعار الوحيد الرهيب المؤبد ؟ أيها السعار الوحيد الذي يفوق في جنونه ذلك السعار الذي يعذبني، أيها الموت، أيها الموت، لماذا تتركني معلقا بين يديك ؟ هيا، عجل بضربي بسهمك، لقد تبت والقنوط يحرقني على نار بطيئة.

القنوط : ليس له أن يضربك بسهمه الآن، رتب أمورك، ثم اذهب واشنق نفسك، وهذا حبل احتفظت به من أجلك.

يهوذ : يا لتعاسي ! أموت هكذا مشنوقا بحبل دون أمل في أي عزاء ؟! يا لليأس، وأسفاه ؟ هذا هو الفخ الذي يريد الموت أن يوقعني فيه. إن الآلام بجميع صورها تبحث عني جماعة. إنك لمذنب أيها الطمع الذي اخترت لي، وفتحت أمامي تلك الطرق التي أعاني في نهايتها كل هذا التمزق. وا أسفاه ! ماذا يجب أن أفعل ؟ أينبغي لي أن أقتل نفسي ؟ أهذا الموت ضروري لي ؟ أأنت عدوي، أيتها الشفقة التي كان ينبغي لها أن تعزبني قبل موتي ؟

القنوط : إن الصياح وطلب الرحمة لا جدوى لهما : اذهب واقتل نفسك. يجب أن تفعل ذلك طوعا وعن طيب خاطر، وأن تلوذ بالصمت.

يهوذا : كيف كيف ؟

القنوط : لا تقلق خاطرك، سأريك الوسائل انظر إلى جعبتي، ولاحظ مقدار ما معي من عدد تساعدني في مهنتي. معي مقصي وسكيني الكبير، وليس هناك آلة من آلاتي إلا وهي جيدة وجميلة وقاطعة، ومن أحسن الأصناف، وصالحة لقطع الرقبة بضربة واحدة. وإذا أردت خناجرا أو حرابا، فلدي منها أصناف عديدة. خذ هذا وأطعن به بطنك بكل قواك، وحينئذ لن تشعر إلا وقد تخلصت من نفسك، وها هي ذي الحبال والمناطق التي

أعدتها للزملاء لكي يشنقوا أنفسهم بسرعة. اختر، لا تتردد كثيرا، اطرق الحديد ولما يزل حارا. يهوذا : إذا لم يكون لي مفر من القنوط، إذا لم يكن لي بد من فقدان الأمل، إذا كانت تنقصني موهبة الأمل، فلست في حاجة إلى من يقنعني بشجاعتي. هيا، أسرع أيها القنوط، لقد آن الآوان لكي تهتم بأمر موتي.

القنوط : أي موت تفضل ؟

يهوذا : أطلب إليك أن تشنقني.

القنوط : لكيلا تنتظر طويلا، خذ مني هذا الحبل. وستشنق نفسك بنفسك، فهذا خير ما يمكنك أن تفعله. وسأساعدك طائعا مختارا، لكي أخلصك بأسرع ما يمكن.

يهوذا : إذن ! هيا ! أريد السرعة، وإلا انفجر قلبي من السعار. في أي مشنقة سأشنق نفسي ؟ ما قولك، أيها القنوط ؟

القنوط : هذه صفصافة عجوز عوجاء عريضة الأغصان فيها من القوة ما يكفي لحملك. فتسلقها، وسأساعدك.

يهوذا : سأتعلق في هذه الصفصافة وأشنق نفسي، ولكني سأبدأ بصنع آخية لكيلا أنتظر الموت طويلا.

القنوط : أهي جيدة الصنع ؟

يهوذا : عقدة مغزلية فيها من القوة ما يمكنها من حمل الوزن. أيتها الشياطين الكريهة البشعة، أيتها الزمرة المطرودة من رحمة الله، أيتها الطائفة المرذولة الملعونة في الجحيم إلى الأبد، هذه هي كل وصيتي. في اللهيب الأبدي سأترك لكم جسمي وروحي، ودون أي أمل في الفرار.

بريخ : سأكون الموثق الذي يسجل هذه الوصية النبيلة، حتى لا أخدع فيما بعد. وها هو ذا الورق جاهزا.

يهوذا : أنت يا حمل السعار الثقيل الذي يفعم قلبي، أيتحتم علي – منذ الآن – أن أحملك كلا أبديا من الشقاء والتعاسة ؟ يا قلعة اليأس العالية، المحشودة بالصرخات الضارعة المغطاة بصيحات البكاء المسعورة، المحطوطة بسور رفيع من صنع يد الشيطان، التي ليست حفرها إلا آثارا عميقة، إلا هوات لا شاطئ لها ولا قاع، وليس في أبهائها من زخارف، – وا أسفاه – إلا صور بحيرات الشياطين، انتظريني أيتها القلعة، أيتها الدار السحيقة المروعة. ففيك سيكون مستقري. انتظريني، أيتها الهاوية المخيفة، لأني سأموت موتا أليما لا ينتهي، في حومة الكبريت المصهور. انتظرني أيها السجن الصارم، أيها الأتون الأحمر من وهج نار حامية، أيتها الحفرة المليئة بالأفاعي، أيها النهر الجاري بالوحل النتن. سآتي إليك مثقلا بالآلام والهموم، وسأغوص في حمئك. ولكن قبل أن أختم ندائي أتجه إليك، أيها الشيطان الذي أطعته،

فأطلب إليك بصوت عال أن أودعك كلا جسمي وروحي. (يشنق نفسه).

بريخ : أيها القنوط، يا أخي العزيز، أهو قد مات ؟

القنوط : إني أنتظر حتى أشق قلبه وأمزقه، وبعد ذلك سينتهي كل شئ بغاية السرعة. وسيئول أمره إلى ما يؤول إليه.

والآن، اذهب.

بريخ : لا أدري ماذا هنالك، لست أسمعه يتنفس أو يسعل، ومع ذلك فإن روحه لا تستطيع الخروج. ماذا يمسكها ؟

القنوط : هيا ! إني أعرف السبب. ذلك أن هذا المعتوه، حين نكث عهده أقبل على سيده، وطبع عليه قبلة، لذلك لا تستطيع الروح – ولا يصح لها – أن تخرج من هذا الفم الشرير الذي مس شيئا له تلك الدرجة من القداسة.

بريخ : يجب شق بطنه وفتحها وإخراج أحشائه كلها، حتى يتأتى له أن يموت بسهولة. أتوافق على ذلك يا أخي ؟

القنوط : أوافق عليه. ولنذهب، فقد حصلت على فريستنا. لم يبق أمامنا إلا أن ننصرف.

مرثية

السيدة العذراء (وعيسى بين ذراعيها).

عيسى، ابني العزيز عيسى،

يا حبيبي وكل مالي في الحياة

وليس لي فيها سواه،

أنت الآن أكثر

حياة بالنسبة لأمك الحبيبة،

يا كل مالي، يا نوري الكامل،

يا بهجتي الأولى والأخيرة،

وا أسفاه ! أي محيا،

وأي صورة

تملأ قلبي باليأس،

حين فقدت كل ما يعزيني،

حين فقدت حبيبي، ابني، انشرح صدري

الذي أضمه ميتا بين يدي ؟

أيها الموت الخداع،

كيف واتتك الجرأة

على اغتصاب ابني وحده

دون أن تلحقني به ؟

يا لشرك !!

يا لخديعتك

حينما انقلبت علي.

إبني، وثمرة حشاي !!

لقد تركتني يائسة،

مقصاة.

محرومة

من كل خير يستطيع الوصول إلي.

وا أسفاه ! يا ذكراي الحلوة !

فيما مضى كانت عادتي أن أحملك

بمتعة، وبسرور،

في أيام صباك الغض !

بين ذراعي، وكلي حبور،

وأنظر إلى محياك العذب

وإلى تواضعك،

وإلى بساطتك

التي كانت غاية في الجمال،

وكنت أقبلك ألف مرة،

وكنت كلما قبلتك ابتهج قلبي،

وكنت أرعاك،

وكنت أحرسك،

بأقصى عناية –يشهد الله –

على النحو الذي لا تستطيع الأم أكثر منه،

وا أسفاه ! لم تصبح هذه القبلات كما كانت من قبل،

يا ملك السماوات،

حين ترى عيناي

أنك قدمت موتا مخجلا،

موتا شنيعا أليما،

وأن جسدك المقدس الغالي،

المفعم بالفضيلة،

المستدر للرحمة،

قد مزق في كل مكان وكل ناحية.

اليوم الرابع

يقتصر اليوم الرابع على حكاية البعث. المقدمة (٢٧٤٥٢ – ٢٧٨٣٠) جنود الرومان يقومون بحراسة القبر (٢٧٦٣١ – ١٧٧٣٧). اليهود يعملون على القبض على يوسف الراعي وإيداعه السجن (٢٧٧٣٨ – ٢٨٣٨٩) النساء الصالحات يشترين العطور لتعطير عيسى (٢٨٣٩٠ – ٢٨٤٦٥). والحواريون يبكون موت أستاذهم (٢٨٤٦٦ – ٢٨٧٨١). بالرغم من الحراس، وبالرغم من الجحيم، عيسى يبعث حيا (٢٨٧٨٢ – ٢٩١١١)، ثم يظهر أمام أمه (٢٩١١٢ – ٢٩١٠٠). الملائكة يعلنون البعث للنساء الثلاث اللائي يحملن اسم مريم (٢٩١٨١ – ٢٩٢٩٨)، وجنود الرومان يستيقظون فيعلنون البعث (٢٩٢٩٩ – ٢٩٤٠٤)، وبعد ذلك نرى مشاهد متفرقة يظهر فيها عيسى

لحوارييه الذين تفرقوا بسبب المؤامرات الناشبة بين اليهود (٢٩٤٠٥ – ٣٢٧٨٤). ثم الصعود إلى السماء مصحوبا بالابتهاج العام، وسخط الجحيم (٣٢٧٨٤ – ٣٣٤٩١)، ونزول الروح القدس على الحواريين (٣٣٤٩٢ – ٣٤٠٨٧)، وينتهي السر بمغزى تستأنف فيه المناقشة التي دارت في الفردوس بين سيداتها الخمس : الحكمة، والرحمة، والحقيقة، والعدالة، والسلم، فتتعانق كل من الرحمة والحقيقة، والسلم والعدالة، ويعود الممثل لآخر مرة من أجل الخاتمة النهائية والكلية (٣٤٥٤٨ – ٣٤٥٧٤) :

لكي نختتم سرنا هذا

في حبور وشرف رفيع،

ولكي تظهر نهايته على خير ما تكون،

يجب أن نوجه الشكر لله الكبير

وننشد : لك الحمد يا ألله ".

أحكام حول تمثيلية آدم

تصوغ هذه القصيدة هبوط آدم وحواء، وموت هابيل، وتتابع المبشرين بظهور المسيح صياغة مسرحية. ومما لايحظ فيها بوجه خاص : الطريقة التي اتبعها المؤلف في معالجة الموضوع الخاص بالإغراء. والحقيقة أن حواره ينقصه بعض البسط، فقد اكتفى المؤلف بمائة بيت، بمائة بيت صغير ذي ثمانية مقاطع، لكي يصور نجاح الشيطان في إغراء حواء بعد أن أقصاه آدم عنه، ثم في تصوير تغلب حواء بدورها على آدم

وبالرغم من هذه السرعة المفرطة للحدث، وبالرغم من قصر المدة التي منحت للمثلين من أجل أن يغيروا مشاعرهم، يجب علينا أن نعترف بأن نفسيتهم تتسم اتساما قويا جدا بطابع الحقيقة، أما المحادثة بين مالان وحواء، فقد أديرت بمهارة وذكاء كبيرين، إذ يبدأ مالان باستهجان خشونة آدم وغلظته، ثم يظهر رثاءه للمرأة في خضوعها لهذا الجلف، وهي تلك المخلوقة الساحرة الحنون النضرة، وتدافع عنه حواء في بداية الأمر، ثم تضعف شيئا فشيئا إلى أن تستسلم للأغراء في نهاية الأمر. " أ – فارال ".

التاريخ المصور للأدب الفرنسي، الصادر تحت إشراف الأستاذين : ج بيديه، وب. آزار (المجلد الأول، ص ٦٢).

تعتبر تمثيلية آدم أقدم درامة حررت كلها باللغة الفرنسية، وقد

كتبت في إقليم " النورمانيدية " في جنوب انجلترة خلال السنين الأخيرة من القرن الثاني عشر، ولابد أن تكون قد مثلت في دير، لا في دهليز كنيسة، كما يذكر في كثير من الأحيان، لأن تعقد الإخراج فيها يتطلب مكانا رحبا بعض الشئ. والمسرحية لا تكون كلا واحدا، وإنما هي سلسلة متتابعة من المشاهد التي لا يربط بينها إلا أنها تدور كلها حول التجسد. وتفتتح المناظر الأولى منها بآية من الكتاب المقدس تنطوي على مادتها، ولكن هذه المناظر ليست تسلسلا أمينا لما في الآية.

ولا ينتهي الكلام في مقتل هابيل (أول الصالحين والذي يعتبره علماء اللاهوت صورة للمخلص) حتى يتلوه – دون مرحلة انتقال – مشهد تتابع الأنبياء معلنين ظهور عيسى المسيح، وهذا المشهد كله مستجد من موعظة للقديس " أوغسطين " حيث يبدأ المؤلف بذكر كلماتها بنصها، ثم يعلق عليها باللغة الفرنسية، وتتكون الخاتمة من النبوءة التي تصف علامات الساعة.

تعتبر هذه الدرامة – التي أصاب نصها كثير من التحريف بكل أسف – درامة ممتعة، ليس فقط لما فيها من بدايات للتحليل النفسي الذي يبدو في الأدوار التي تجرى بين حواء والشيطان، بل لوجه خاص من أجل دقة الملاحظات " المكتوبة باللاتينية " والتي تصف الإخراج : فهي وثيقة ذات أهمية عظمى ليس لدينا لها مثيل حتى نهاية القرن الخامس عشر.

أ– جنروا

المسرح الديني في فرنسا في القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر "

قصائد ومقتطفات من فرنسا القديمة (ط باريس، أ دي بوكار، ١٩٢٤) (المقدمة، ص ١٤- ١٦).

إذا كانت هذه الدرامة المكونة من حوالي ألف بيت تبدو مفككة الأوصال في ظاهرها، فإنها تنطوي على فكرة تجعل منها وحدة لاهوتيه، فهي تبدأ بالخطيئة الأولى، وتنتهي بالأمل في الخلاص بعد أن تتعرض لموت هابيل الذي يعتبر الجريمة الأولى المنبعثة من الخطيئة الأولى، كما يعتبر في الوقت نفسه الصورة الأولى للتضحية التي ستتحقق فوق الصليب من أجل فداء الآثمين. ولكن إذا كان من شأن الجزأين الأخيرين من الدرامة (وبوجه خاص الجزء الثالث الذي يشبه إلى حد كبير إحدى الدرامات الكنسية القديمة من دورة عيد الميلاد) أن يبهروا أذهان متديني العصور الوسطى الذين كانوا يتمثلون معناهما الديني، فإن الجزء الاول وحده هو الذي يسترعي الاهتمام في أيامنا هذه بفضل قيمته الدرامية. هـ. شامار سر " آدم ".

نص مأخوذ من مخطوطة تور – ط أ. كولان باريس، ١٩٣٥ (المقدمة ص ٧–٨)

"إذا كانت ملاحظات الإخراج المسجلة على نص هذه المسرحية، والأناشيد الطقوسية البحتة التي تنسب فيها إلى جماعة المرتلين، مكتوبة باللاتينية، فإن هذه المسرحية في رشاقة أسلوبها، وبذخ إخراجها تذكرنا بأن النصف الثاني من القرن الثاني عشر هو العصر الذهبي للأدب

الفرنسي الوسيط، حيث أخذت القصة البطولية تشب وتنمو. ولعل هذا هو السبب في أن الشيطان لا يبدو فيها في صورة ذلك الكائن القبيح الأشعر ذي القرون المكشر عن أنيابه، التي نجدها في المسرحيات اللاحقة. بل بالأحرى في صورة مضلل ظريف يستخدم مع أم البشر سحر الكلام وزخرفه.

وعنوان المسرحية "قداس تمثيل آدم" يشير بوضوح، إلى أنها تعتبر بالرغم من غلبة الطابع الدنيوي عليها، جزءا مكملا للعبادة، ولكن لا يكاد المرء يبدأ بقراءة الملاحظة اللاتينية المسهبة حتى يرى نفسه أمام مسرحية حقيقية مستكملة الصفات. أليس من الممتع حقا أن نرى هذا الاهتمام من كاتب درامي يريد أن يضمن لعمله إخراجا متمشيا مع إدراكه الخاص للأمر، وغنيا بالملابس، ولا يدخر جهدا في إغداق أدق التوصيات حول الحركات التعبيرية وتناسقها مع الكلمات، والإلقاء الذي يريده واضحا قويا، واحترام الأوزان التي اختارها؟ وما القول في هذه الإشارة الساذجة المعبرة التي يقول فيه – حينما يعرض الكلام عن الفردوس–: يجب إمكان النظر إليها باليد ! ألا يخيل إلينا هنا أننا نسمع أوامر هاملت للمثلين في قصر الدانيمركه والتي هي نفس الانتقادات التي كان يوجهها لممثليه الخرق!

ج. كوهين
المسرح في فرنسا في العصور الوسطى. " المسرح الديني "
(ص ٢٤ – ٢٦. ط. ريدر. باريس)

حول " معجزات السيدة العذراء "

"احتفظت لنا إحدى مخطوطات المكتبة الأهلية (وهي مخطوطة كانجيه القيمة) من أدب هذه الفترة بمجموعة تتكون من أربعين معجزة من معجزات السيدة العذراء. وهي ترجع إلى عدة مؤلفين، وتتناثر تواريخها، على ما يبدو، على طول النصف الثاني من القرن......

والموضوعات هنا ليست بالجديدة، فإن الأدب القصصي السابق قد استغل فيها على أيدي أناس كانوا يعرفونه جيدا، ومن ذلك معجزات جوتيه Cautier وكوانسي Coincv، وأناشيد المفاخر، وقصص المغامرات، وسير القديسين والتواريخ، ذلك أن هؤلاء المؤلفين كانوا قد طرقوا جميع الأبواب، معتقدين في أغلب الظن – أنهم قد يجدون في كل حالة من الحالات حقيقه تاريخية. والواقع أننا نجد ذكر العذراء في بعض النصوص التي اتخذوها مصادر لهم، فجعلوها هم تتدخل في كل شئ. فهي التي تظهر في مرحلة معينة ليس فقط لكي تقود وتنجي البرآء الذين يستطيعون ذلك بأنفسهم، بل أيضا لكي تنجي الآثمين التائبين، وبوجه خاص أولئك الذين ظلوا يؤمنون بأم المسيح حتى النهاية.

وليس في وسعنا أن نشك في أن " معجزات السيدة العذراء " عمل أدبي ديني، وليس معنى ذلك أنها لم تهدف إلا إلى تربية المشاهدين. فإن العنصر الهزلي يبدو فيها واضحا. ويمكننا أن نلمح فنا للديكور أقل بدائية مما كان ينتظر. فلا شك أن ظهور العذراء في موكبها المكون من طواويس الملائكة وهم ينشدون الأناشيد، وكان يحدث أثره العاطفي على

هذا الجمهور الساذج. وبوجه خاص لابد أن تقلبات الحدث المذهلة في بعض الأحيان كانت تجعل الجماهير يلهثون، كما أن قصة امرأة تتهم خطأ بحبها زوج إبنتها حبا آثما فتقتله، ويكتشف أمرها، ويحكم عليها بالموت حرقا، ثم تنتزعها السيدة العذراء من بين كومة النار، وتقضي ما بقي من حياتها في الدير، لابد أن لها نفس الجاذبية التي تتمتع بها قصة سوقية من القصص الحديثة. ولكن مناظر الحياة البرجوازية والشعبية هي التي تفرضها علينا المعجزات بأكبر قدر من التوفيق، ذلك أنها تمكننا من النفاذ إلى مساكن الأسر الصغيرة، والمتواضعة، وتطلعنا على طريقتهم في التفكير والإحساس أكثر مما تطلعنا على تفاصيل حياتهم اليومية، وهذا هو مبعث تلك المتعة الأصلية التي لا نعثر عليها بنسبة مساوية في أي عمل معاصر. فهذه المعجزات الساذجة التي خلفها لنا القرن الرابع عشر تعكس لنا بعض الشئ روح فرنسا القديمة.

ل. فوليه
التاريخ المصور للأدب الفرنسي
الصادر تحت إشراف الأستاذين ج. بيدييه و ب. آزار.
(مجلد ١ ص ٩٩ - ١٠٠)

إن معجزات السيدة العذراء لا تمتعنا من حيث عقدتها التي تنحصر دائما في التدخل الإعجازي للقديسة العذراء على طريقة المسرح الإسباني، ولكن بوجه خاص من حيث الحقيقة المذهلة التي تتسم بها مواضيعها المستقاة من سير القديس والفلكلور والأسطورة والملحمة...

..... ويمكننا أن نحدس بما كان يمكن أن يصير إليه هذا النوع

على أيدي مؤلفين من أمثال كالدرون Cnldrou أو لوب دي فيجا Lope de vega. غير أنه لم يتطور قط. ذلك أن هذا العرض المسمى " بالعبقرية " لم يصادفه، فظل في أيدي قوم من صنعاء النظم التافهين.

.... وهكذا نرى أن التقوى – كما هي الحال في " التفاني في الصليب " لكالدرون – تمحو جيع الجرائم، وأن التفاني في السيدة العذراء آكد ترس ضد العقاب العادل، وأن الرحمة الإلهية تقطع طريق العدالة البشرية الرتيب.

" جوستاف كوهين "
(المصدر السالف، ص ٤١ – ٤٣)

"... ليست أشخاص "المعجزات" بالألاعيب ولا بالمعاني الميتافيزيقية المجردة. إنهم أشخاص يعيشون. وهذا التتابع للمناظر القصيرة المؤثرة من شأنه – كما هي الحال في المسرحين الإسباني والشيكسبيري – أن يوهم المشاهدين بواقعية ما يعرض عليهم من أحداث وأشخاص...

وقد أحسن الأستاذ "ج. باري" حين لاحظ أن المعجزة تكون شكلا دراميا حافلا بشتى وعود الازدهار، ولكنها لم تلبث أن تفقد حظوتها لدى الجمهور، مما عاقها عن تحقيق هذه الوعود. (بوسوا)

تاريخ الأدب الفرنسي الصادر تحت إشراف
ج كلفيه " العصور الوسطى " (ص ٣٣٥ – ٣٣٦)

إن الانطباع الذي تتركه في الذهن هذه التمثيلية في عمومها يتسم بالقوة والعظمة.. فلماذا – إذن – لا تجذبنا هذه " الأسرار " التي استولت على إعجاب الجماهير في القرن الخامس عشر ؟ ذلك لأننا لا نراعي في حكمنا عليها سوى قيمتها الأدبية. والحقيقة أن التنفيذ فيها لا يتناسب مع عظمة التصور حتى لدى كاتب مثل جريبان، فقد نرى فيها بيتا كان يمكن أن يكون رائعا، ولكنه حشي بضروب السطحية في صورة ثمانية مقاطع. وكم نقابل فيها من مشهد جيد لولا ضروب الاعتراض الغثة المملة التي أقحمت فيه، ولكن الذي ينقصها بوجه خاص هو الروح الدرامي، فليس فيها حركة بمعنى الكلمة. وهذا المسرح الذي يبدو كأنه يعج بالحياة والحركة مسرح جامد. وأغلب الظن أن احترام النصوص المقدسة هو الذي أدى إلى ذلك، فلم يكن للشاعر حرية التصرف إلا فيما يختص برسم الشخصيات الهزلية.

ومع ذلك فإن الكثير من مشاهد جريبان أوجان ميشيل توحي إلينا بما كان يمكن لشاعر موهوب أن يستخرجه من موضوع محدد هذا التحديد الصارم. ولكن ليس هناك في بناء " الأسرار " مكان للموهبة، بالرغم مما ينطوي عليه من التعقيد والمقدرة العلمية. فهناك أرصدة مالية يقف الشاعر إزاءها بجانب النجار على قدم المساواة. وكلاهما يشتغل بكل جهده في نفس العمل، وهو التربية والتسلية، ولم يفكر أحد في أن يطلب من الشاعر أن يفعل خيرا مما يفعل، أو في أن يزوده بالوسائل التي

تمكنه من ذلك. فمؤلفو الأسرار كانوا رجال قانون وموثقي عقود، وبوجه خاص رجال دين مضطرين للخضوع لما توجيه عليهم مهنتهم، ثم كيف يجدون لديهم الوقت لكي يتأملوا – على مهل – هذه القصائد الطويلة التي تصل إلى ٣٠٠٠٠ بيت لدى جريبان ؟ وإلى أكثر من ٦٠٠٠٠ في " أعمال الرسل "....

..... إذا أردنا أن ندرك الأصالة الحقيقية للأسرار. فإنه يجب علينا ألا نقتصر على قراءتها، وإنما ينبغي أن نعيد وضعها في إطارها، وأن نشاهد بخيالنا هذا التمثيل الفخم، وأن ننظر إلى الجمهور أكثر مما ننظر إلى المؤلف.

فلم يكن ثراء الشكل أو جماله هو الذي يبهر تلك الجموع، بل الموضوع نفسه بل الدين وقد وضع في متناولهم، حيث كانوا يرون الإله وهو يشرح بنفسه للمؤمنين ويبين لهم. وعلى النحو كان مسيحو القرن الخامس عشر يتلقون – وهم في حالة تجل وانجذاب – أفخم دروس ديبنية كان يمكن أن يتلقوها.

" ل. فوليه "
(المرجع السابق، ص ١٠٣ –١٠٤)

" إن الأثر الشعري العظيم الذي خلفه لنا القرن الخامس عشر، والذي لا يقل في عظمته عن إحدى الكاتدرائيات قد نشأ في كاتدرائية، في نتردام باريس. وهذا الأثر الذي يشبه الأروقة المزينة بالتماثيل والصور في تلك الكنيسة الجليلة التي يكاد جمالها القوي يسحق الرائي حتى

بالنسبة للأقدمين الذين كانوا يتأملونها، هذا الأثر عبارة عن درامة، عن " سر " كما كانوا يسمونه في ذلك الحين.

هذه الدرامة بأشخاصها العديدين تذكرنا بالتماثيل والصور الكبيرة والصغيرة التي تزين الكاتدرائية، وتبعث فيها الحياة، كما أن مقطوعاتها ذات الطابع الغنائي، وموسيقاها، وملابس ممثليها ونكراتها، تزينها كما تزين الكنيسة صورها وزجاجها الملون، وهذه الدرامة المسيحية كالكنيسة، عمل منطقتي شيد بصورة منطقية، وبني بمواد نظيفة.

" والآلام " كتاب كامل طويل، بل شديد الطول، كما أنه رقيق ولطيف أيضا، كتاب عالم وموسيقى، كتاب تنعكس فيه صورة كاتدرائية نتردام الباريسية ينسبها وموسيقى جماعتها الترتيلية، باحتفالاتها الجليلة، وبالإختصار بكل بكل طقوس حياتها الدينية.

ولابد لنا من الاعتراف بأن جزءا كبيرا من المتعة والجمال اللذين يحس بهما في " سر الآلام " كان يرجع إلى إخراجه، إلى مواكبه، إلى الموسيقى التي كانت تصحبه، وتجعل منه بوعا من الدرامة الموسيقية، أو من الأوبرا.

(حول الإخراج) :

... كان هذا الإخراج آنيا، كما هو معروف، أي أن كل أماكن الأحداث التي تغلق بوساطة أستار كانت تقام كلها منذ البداية على تخوت قد يصل طولها إلى ثلاثين مترا. وكانت تنضد على مستوى واحد

أو على مستويات متدرجة. وهكذا كان المرء يرى تحت بصره دائما نفس الديكور الذي يمثل – على سبيل المثال – الجحيم، وهي فوهة ضخمة تفتح وتغلق وتقذف باللهب والدخان، كما يمثل طستا مليئا بالماء يشير إلى البحر، أو إلى بحيرة طبرية، وأبوابا ضخمة تمثل بيت المقدس والقصر والمعبد والناصرة، ويمثل الفردوس، وهي عبارة عن كوخ تعلوه شمس ساطعة.

وكان كل أشخاص المسرحية – حتى أولئك الذين لا يشتركون في الدور الجاري– يظلون على المسرح، فيكونون بذلك لوحات حية تحت أبصار المشاهدين. وبالاختصار كان يمكن أن يظل هناك أربعمائة شخص داخل أماكنهم أو أمامها، فتصبح هذه الأماكن وكأنها مقصورات لهم، أما هم فيشبهون تلك المئات من التماثيل التي تحلي كوي الأروقة في الكنائس القوطية. ويمكننا القول بأنه كان يرى هناك عالم بأسره، غارق في إيمانه يدعو وينشد في صوت واحد، ويتأمل الممثلين أمامه وكأنهم عالم آخر.

" ب – شامبيون "
(التاريخ الشعري للقرن الخامس عشر
مجلد ٢، ط ١٩٣٣، ص ١٢٣ – ١٤٨)

" هناك سبب رئيسي يعوق " السر " عن احتلال مكانه في صف الدرامات العظيمة التي تفرض نفسها بصورة دائمة على إعجاب العالم الغربي، وذلك أنها لم تعرف كيف تحد من طموحها، إنها أرادت أن تضم

تاريخ السلالة البشرية والكون كله بين ذراعيها في ضمة واحدة، أرادت أن تقدم للكائن البشري مسرحا إلهيا، ولكن لما كان الإله هو الكون مدركا ذاته، كان من المستحيل حصر هذا الكون الكبير في كون المسرح، ذلك الكون الصغير، حتى ولو جعل الرب من نفسه إنسانا. ومن هنا كان ظهور المسيح (في سر الآلام) يحرك عواطفنا، ويجذبنا بمقدار اقتراب دوره في الحياة من دور الإنسان. ولكن أمه تجذبنا أكثر من ذلك حين تخلع عليها واقعية كاتب مثل جريبان عواطف طبيعية، ويمتعنا أكثر من هذا وذاك دور يهوذا حيث نرى التعاسة والجبن والدناءه والندم المر ترتبط بضعف الإنسان وميوله الشريره. وهذه أيضا هي الحال بالنسبة لمسرح أوبرا مارجو الألماني. ولا شك أن القول بأن مسرح العصور الوسطى لم يتيسر له التقاء الموضوع بالعبقرية، ذلك الشرط الضروري لظهور الروائع قول غير كاف، ولعل من الأصوب أن يقال بأنه قد حاول عملا مستحيلا، حاول الإقدام على مشروع ميئوس من تحقيقه، وهو أن يمثل عمل الخالق فوق تخوت الميدان العام، وفي قلب المدينة وتحت سماء الاله، ولكن هذه المحاولة قد تركت، بالرغم من هذا، أطلالا رائعة جديرة بتلك الفترة التي استطاعت تصوير الكوميديا الآلهية وتحقيقها على يد دانتي الإيطالي.

" ج. كوهين "

(المرجع سالف الذكر، ص ٧٤ – ٧٥)

الفهرس